ملخص الدراسة

هذه دراسة بعنوان: "ملامح الديستوبيا في رواية يوتوبيا للكاتب أحمد خالد توفيق (١٩٦٢-٢٠١٨م) عرض وتحليل", وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تخرج في مبحثين يسبقهما مقدمة وتمهيد, ويعقبهما خاتمة, ثم ثبت بالمصادر والمراجع, وفهرس للموضوعات على النحو التالي:

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع, وأسباب اختياره, والدراسات السابقة عليه, والمنهج المتبع في الدراسة وخطته, أما التمهيد فقد جاء تحت عنوان: (يوتوبيا بين المصطلح والرواية), تحدثت فيه عن مفهوم كلمتي يوتوبيا, وديستوبيا, وعرضت فيه تلخيصًا للرواية, وأهم الشخصيات الواردة فيها.

وجاء المبحث الأول بعنوان: (مستويات الديستوبيا في الرواية), تحدثت فيه عن: مستوى الخراب النفسي مستعرضًا لعدة قضايا منها: تحول العلاقة بين أفراد الأسرة, الملل= الانتحار, ازدواجية الشخصية = التدين الكاذب, وانتهاك القانون, احتقار الآخر, أما مستوى الخراب المادي فقد تناولت فيه قضايا: الفقر: وفيها عرضت لأهم الملامح الديستوبية مثل: ديستوبيا الشم والرائحة, ديستوبيا البصر, ديستوبيا الأكل, ثم عرضت لقضايا: فوضى الجنس, وانتشار المخدرات, والقتل.

أما المبحث الثاني فخصصته للبناء الفني, وتناولت فيه الحدث, وأنواعه, وأسلوب قص الأحداث في الرواية, وطريقة الكاتب في رسم شخصياته, ثم البيئة الزمانية والمكانية, وأخيرًا تحدثت عن سمات الأسلوب السردي, ثم جاءت الخاتمة؛ لتتضمن أبرزَ النتائج التي توصل إليها البحث.

Study summary

This is a study entitled: “The Features of Dystopia in the Novel Utopia by Ahmed Khaled Tawfiq (١٩٦٢-٢٠١٨) Presentation and Analysis”. The nature of this study required that it be produced in two papers preceded by an introduction and an introduction, followed by a conclusion, then it is established with sources and references, and an index of the topics is as follows:

Introduction: In it I talked about the importance of the topic, the reasons for choosing it, the previous studies on it, the methodology used in the study and its plan, and the preface was devoted to talking about: Introduction: its title (Utopia between the term and the novel), in which I talked about the concept of the word utopia and dystopia, and presented a summary of the novel, And the most important personalities contained in it.

The first topic entitled: (Levels of dystopia in the novel), in which I talked about: the level of psychological devastation, reviewing several issues, including: the transformation of the relationship between family members, boredom = suicide, personality duality = false religiosity, violation of the law, contempt for the other, and the level of material devastation It dealt with issues: Poverty: In it, the most important features of dystopia were presented, such as: dystopia of smell and smell, dystopia of sight, dystopia of eating, and then

presented to issues: sex disorder, the spread of drugs, and murder.

As for the second topic, I devoted it to artistic construction, and dealt with the event, its types, the method of storytelling events in the novel, the writer's way of drawing his characters, then the temporal and spatial environment, and finally I talked about the features of the narrative style, and then came the conclusion To include the most prominent findings of the research.

المقدمة

إن الحمد لله أحمده سبحانه, وأستعين به, وأستغفره, وأعوذ به من شر نفسي, ومن سيئات أعمالي, وأصلي وأسلم على أشرف خلقه, محمد ﷺ وعلى آله وصحبه, والتابعين.

وبعد

استطاعت الرواية أن تحتل مكانة مرموقة في فضاء الأدب، بعد أن أصبحت مرآة عاكسة لحياة الإنسان, ومشكلاته, وتجسيدًا لواقعه الاجتماعي, وقد عبرت الرواية عن المستقبل بأشكال متعددة منها ما هو خيال محض, ومنها ما اتخذ من الواقع بأزماته الراهنة, وأوضاعه المنذرة بالخطر, ومشكلاته سبيلًا لانطلاقه إلى المستقبل, في محاولة لرأب الصدع, وإصلاح المجتمع, وقد وقع اختياري لرواية (يوتوبيا), إحدى روايات الكاتب أحمد خالد توفيق لتكون موضوع بحثي؛ إذ جذبني أسلوبها السردي, وموضوعها المستقبلي, وقالبها الفني الذي استطاع الكاتب أن يزاوج فيه بين الواقعي والمتخيل, والرواية ترصد المناخ الديستوبي للحياة في ظل هيمنة فئة معينة من المجتمع، واستئثارها بجميع ألوان المتع والترف, ومن ثم جاءت هذه الدراسة بعنوان: "ملامح الديستوبيا في رواية يوتوبيا للكاتب أحمد خالد توفيق (١٩٦٢- ٢٠١٨م) عرض وتحليل" لاستعراض أهم هذه الملامح, وعرض قضاياها, في محاولة للإجابة على أسئلة فرضت نفسها منذ القراءة الأولى لعنوان الرواية: يوتوبيا لمن؟ وأين؟ ما مفهوم اليوتوبيا, والديستوبيا؟ ما ملامح ظاهرة

الديستوبيا في هذه الرواية؟ وكيف صاغها؟

أما عن الدراسات السابقة فلم أقف على دراسة أكاديمية خُصصت لمثل هذا الموضوع, على الرغم من اهتمام بعض النقّاد برصد ظاهرة الأدب الديستوبي, والروايات التي تمثله, خاصة بعد ثورة يناير ٢٠١١م, من خلال المقالات الصحفية, مثل:

– أدب المدن الفاسدة يجتاح الرواية العربية، حنان عقيل ونجاح غربي, صحيفة العرب، ركن الثقافة، العدد/١٠٥٣١, ٢/٢/ ٢٠١٧م، السنة/ ٣٩.

– أدب المدينة الفاسدة انتقال من الأدب الخيالي إلى الواقع الحقيقي, نرمين صلاح القماح, صحيفة العرب, ركن الثقافة , العدد/ ١٠٩١١, السنة/ ٤٠, ٢٥/ ٢/ ٢٠١٨م.

– ليبيا وأدب الديستوبيا, سالم العوكلي, جريدة الوسط, ليبيا, الثلاثاء ١٢ مارس ٢٠١٩.

ومن الدراسات الأكاديمية التي أفاد منها الباحث دراسة للدكتورة فاطمة پرچگانى بعنوان:

– الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية (أورويل في الضاحية الجنوبية) لفوزي ذبيان, فاطمة پرچگانى, إضاءات نقدية, السنة ٨، العدد ٢٩، ربيع ١٣٩٧هـ– ٢٠١٨م.

أما عن المنهج المتبع في هذه الدراسة, فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على رصد الملامح الديستوبية ومظاهرها النفسية, والمادية, وانعكاسها في الرواية, من خلال وصف نصوصها, وتحديد طرق بنائها, ومن ثم الخلوص إلى النتائج.

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تخرج في مبحثين يسبقهما مقدمة وتمهيد, وتعقبهما خاتمة، ثم ثَبَت بالمصادر والمراجع, ثم فهرس للموضوعات على النحو التالي:

المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع, وأسبابِ اختياره, والمنهجِ المتبع في الدراسة, وخطتِه.

التمهيد: وعنوانه (يوتوبيا بين المصطلح والرواية), تحدثت فيه عن مفهوم كلمتي يوتوبيا, وديستوبيا, وعرضت فيه تلخيصًا للرواية, وأهم الشخصيات الواردة فيها.

وجاء المبحث الأول بعنوان: (مستويات الديستوبيا في الرواية), تحدثت فيه عن: مستوى الخراب النفسي ممثلًا في قضايا: تحول العلاقة بين أفراد الأسرة, الملل= الانتحار, ازدواجية الشخصية = التدين الكاذب, وانتهاك القانون, احتقار الآخر, أما مستوى الخراب المادي فقد تناولت فيه قضايا: الفقر: وفيها عرضت لأهم الملامح الديستوبية مثل: ديستوبيا الشم والرائحة, ديستوبيا البصر, ديستوبيا الأكل, ثم عرضت لقضايا: فوضى الجنس, وانتشار المخدرات, والقتل.

أما المبحث الثاني فخصصته للبناء الفني, وتناولت فيه الحدث, وأنواعه, وأسلوب قص الأحداث في الرواية, وطريقة الكاتب في رسم شخصياته, ثم البيئة الزمانية والمكانية, وأخيرًا تحدثت عن سمات الأسلوب السردي, ثم جاءت الخاتمة؛ لتتضمن أبرزَ النتائج التي توصل إليها البحث.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

د/ محمود محمد السعيد أبو زهرة
المدرس في قسم الأدب والنقد
كلية اللغة العربية بالمنصورة- جامعة الأزهر

التمهيد

يوتوبيا بين المصطلح والرواية

أولًا: مفهوم يوتوبيا Utopia (المدينة الفاضلة):

يدور معنى (اليوتوبيا) حول المجتمع المثالي, الخالي من الشرور والمنغصات, والذي يتمتع فيه من يسكنه بالهدوء, والراحة, والطمأنينة, والعدالة, واليوتوبيا نوع من التأليف الأدبي, أو الفلسفي, يتخيل فيه كاتبه الحياة في مجتمع مثالي لا وجود له، مجتمع يزخر بأساليب الراحة والسعادة لكل بني البشر, وإلى هذا المعنى في اليونانية يرجع استخدام المصطلح الذي اشتقه الكاتب الإنجليزي "توماس مور"[١] في كتابه "يوتوبيا" الذي ألفه عام (١٥١٦م), وهو أول من صاغ كلمة يوتوبيا, أو (أوتوبيا) في نطقها اليوناني, وقد اشتقها من الكلمتين اليونانيتين (Ou) بمعنى لا, و (Topos) بمعنى مكان, وتعني الكلمة في مجموعها: (اللامكان), ولكنه أسقط حرف(O), وكتب الكلمة باللاتينية لتصبح: (Utopia), ووضعها عنوانًا لكتاب له هو أشهر (يوتوبيا) في العصر الحديث, واستخدم اللفظ منذ ذلك الحين في كل اللغات الأوروبية, وفي ترجمته العربية أيضا ليعني نموذجًا لمجتمع خيالي مثالي يتحقق فيه الكمال أو يقترب منه, ويتحرر من الشرور التي تعاني منها البشرية, ولعل هذا النوع من التأليف يعود إلى كتاب (الجمهورية) للفيلسوف اليوناني المشهور أفلاطون (٤٢٧- ٣٤٧ ق.م)، الذي كان يستهدف إلغاء التناقضات الاجتماعية في المدينة, وإقامة مجتمع طبقي جامد, على عكس الكتابات التي أتت بعد عصر النهضة حالمة بمجتمع لا طبقي, وقد تطور المصطلح فيما بعد فأطلق على كل إصلاح سياسي, أو أي تصورات خيالية مستقبلية, أو احتمالات علمية وفنية, ولكن تظل اليوتوبيا تصورًا فلسفيًّا ينشد انسجام الإنسان مع نفسه ومع الآخرين, ومع مجتمعه, فالفكر اليوتوبي معني في الدرجة الأولى بخلق أفكار, وتصورات للانسجام الاجتماعي, ويختلف كل الاختلاف عما يسمى في عصرنا بعلوم المستقبل التي تقوم على التخطيط العلمي, والرياضي للمستقبل على أساس الإمكانات الكامنة في الواقع الراهن, وقد تنوعت النماذج اليوتوبية فتم التعبير عنها في أشكال أدبية مختلفة منها: المقالة, والقصة, والرواية, والقصيدة, أو في شكل نظريات سياسية تقدم صورة نظام سياسي نموذجي بمؤسساته

---

(١) السير توماس مور (١٤٧٨- ١٥٣٥م) كان قائدًا سياسيًّا, ومؤلفًا وعالمًا إنجليزيًّا, وهو قديس حسب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية, عارض طلاق هنري الثامن لكاثرين من آراغون، ورفض الاعتراف به كرئيس للكنيسة الرومانية الكاثوليكية في إنجلترا، فحبس وقطع رأسه في برج لندن, ولد في مدينة لندن, وتلقى تعليمه في مدرسة القديس أنتوني, وأصبح محاميًا ناجحًا, وعين كنائب عمدة لمدينة لندن من ١٥١٠ إلى ١٥١٨, ألف كتاب "اليوتوبيا" (١٥١٦م), تم إعدامه في ٦ يوليو (١٥٣٥م). ينظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة, توماس مور .https://ar.wikipedia.org

المختلفة, مع تصور كامل لكل تنظيمات الحياة كما عند (توماس مور), أو في بعض نظريات فلسفة التاريخ كما عند (كوندورسيه)[١], ويلعب الخيال الدور الأكبر في كل الأشكال والمشروعات اليوتوبية بدءًا من جمهورية أفلاطون, وهي النموذج الأول لكل اليوتوبيات, وانتهاءً بروايات الخيال العلمي, ولكن الأفكار, والخيالات, والأحلام اليوتوبية لم تكن غير استجابات مختلفة للمجتمعات التي نشأت فيها, فكانت تعبيرًا عن الرغبة في تغيير الواقع القائم, وتجاوزه, والحلم بحياة ومجتمع أفضل وأكثر عدلًا, ولم تجد الغالبية العظمى من المشروعات اليوتوبية طريقها إلى التطبيق, والقليل النادر الذي طبق منها كان مآله الإخفاق, ومع ذلك لم يكف الخيال البشري عن الحلم بواقع إنساني أفضل, ولن يتوقف عنه في يوم من الأيام[٢].

وعلى الرغم من أن اليوتوبيا مصطلح اجتماعي، يترجم عن أفكار حالمة تتخطى الواقع المادي، وتسعى إلى تحويل النظام الاجتماعي الظالم, فإن أنواعًا مختلفة لليوتوبيا قد ظهرت في الفكر الإنساني، "باعتبارها النماذج المتكاملة التي تسعى الإنسانية إلى تحقيقها ومنها:

– اليوتوبيا الفلسفية: تقوم على البحث عن قيم تجريدية قادرة على إقامة نماذج لبناء افتراضي لدولة مثل جمهورية أفلاطون, ودولة المدينة لأرسطو, والمدينة الفاضلة للفارابي.

– اليوتوبيا الدينية: وهي التي تقوم على التصوف المنهجي، أي الربط بين قوة الوسيلة وسمو الغاية، بحيث تكون قوة الطاعة في الدين هي الوسيلة للوصول إلى الغاية الأسمى والجزاء الإلهي. وتمثل فكرة "الجنة" غاية اليوتوبيا الدينية التي يسعى إلى الوصول إليها كل المتدينين على اختلاف عقائدهم، تاركين الدنيا وراءهم باحثين عن الغاية الأسمى.

---

(١) كوندورسيه (١٧٤٣– ١٧٩٤م): ماري جان أنطوان نيقولا كاريتا، فيلسوف ورياضي وموسوعي فرنسي، وأحد أبرز المشاركين في الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وُلد في بلدة ريبمون بمقاطعة بيكاردي بفرنسا, تسلّم العديد من المناصب الإدارية الرفيعة، كان آخرها رئيسًا للجمعية التشريعية في باريس عام ١٧٩١م, وعمل محررًا في جريدة أخبار باريس, ثم أسس جريدة المجتمع, وقد نادى كوندورسيه بإصلاحات عديدة على مستوى التعليم, والدستور, والمساواة, والديمقراطية، لكن اتهم عام ١٧٩٣م بالخيانة, والخروج على مبادئ الثورة، قبضت عليه الشرطة, وأودع أحد السجون القريبة من باريس، ومات في الليلة نفسها، ربما من الإرهاق أو مسمومًا, الموسوعة العربية, هيئة الموسوعة العربية سورية– دمشق, ١٦/ ٦٢١, على الموقع:
.http://arab-ency.com.sy/overview

(٢) ينظر: المدينة الفاضلة عبر التاريخ, ماريا لويزا برنيري, ترجمة: د/عطيات أبو السعود, مراجعة: د/عبد الغفار مكاوي, عالم المعرفة, ع/ ٢٢٥, سبتمبر ١٩٩٧م, ص٧, ٨. وينظر: معجم المصطلحات الأدبية, إبراهيم فتحي, المؤسسة العربية للناشرين المتحدين, تونس, ١٩٨٦م, ص٤١٥. وينظر: معجم مصطلحات الأدب, مجمع اللغة العربية, القاهرة, ١٤٢٨هـ– ٢٠٠٧م, ١/ ٧. وينظر: معجم المصطلحات الأدبية والنقدية, د/ أسامة محمد البحيري, دار النابغة للنشر, ط الأولى, ١٤٤٢هـ– ٢٠٢١م, ص٢٠٢.

– يوتوبيا الأيديولوجيا: وهي قائمة على فكرة اليوتوبيا الدينية نفسها, ولكن بشكل مادي، الوسيلة والغاية، وهذا النوع من اليوتوبيا هو الذي بشر بالماركسية, والليبرالية, وغيرها من الأيديولوجيات"[١], والملاحظ أن هذه اليوتوبيات المختلفة تتلاقى على ثقافة واحدة, ثقافة الحلم بمجتمع يتمتع بالسكينة والطمأنينة, ويعيش أهله في هدوء وسلام.

ثانيًا: مفهوم ديستوبيا Dystopia (المدينة الفاسدة):

إذا كانت (اليوتوبيا) تعتمد في الأساس على الحلم الكامن في أعماق النفس البشرية، المتطلعة إلى عالم أفضل, وحياة أسعد, فإن (الديستوبيا), أو المدينة الفاسدة تأتي كنقيض لها في كل شيء؛ فالكلمة "تعني في أصلها اليوناني: المكان الخبيث, على عكس (يوتوبيا)، وفي الأدب استعمل النقاد هذا المصطلح وقصدوا به التأليف الروائي الذي يصف الحياة في مجتمع أفسدته المظاهر المادية, وعصفت به النزعات السياسية, والاجتماعية السلبية، فتلاشت القيم الأخلاقية النبيلة للإنسان أمام عوامل الجشع والانحلال والآلية"[٢].

فالديستوبيا مجتمع خيالي تسوده الفوضى، "ليس للخير فيه مكان، يحكمه الشر المطلق، ومن أبرز ملامحه الخراب، والقتل, والقمع, والفقر, والمرض، باختصار هو عالم يتجرد فيه الإنسان من إنسانيته يتحوّل فيه المجتمع إلى مجموعة من المسوخ تناحر بعضها بعضًا, وقد ظهرت قصص مثل هذه المجتمعات في العديد من الأعمال الخيالية، خصوصًا في القصص التي تقع في مستقبل تأملي, والديستوبيات تتميز غالبًا ... بالحكومات الشمولية, والكوارث البيئية, أو غيرها من الخصائص المرتبطة بانحطاط كارثي في المجتمع"[٣].

والمتأمل في أدب (اليوتوبيا والديستوبيا) يجد أن المبدع ينطلق في كتابته عنهما من (المستقبل)؛ فكلاهما يتحدث عن أمور ستقع فيما بعد, مع اختلاف المبدأ فإذا "كانت النظرة نظرة أمل، فعادةً ما تكون النتيجة يوتوبيا, أما إذا كانت نظرة خوف، فتكون النتيجة في العادة ديستوبيا"[٤].

إن الروايات الديستوبية تتخذ من الواقع, ومشكلاته نقطة انطلاق نحو الحديث عن مستقبل أكثر قتامة, في محاولة لدق ناقوس الخطر, من خلال تسليط الضوء على هذه

---

(١) أدب المدينة الفاسدة انتقال من الأدب الخيالي إلى الواقع الحقيقي, نرمين صلاح القماح, صحيفة العرب, ركن الثقافة , العدد/ ١٠٩١١, السنة/ ٤٠, ٢٥/ ٢/ ٢٠١٨م, ص١٠

(٢) معجم المصطلحات الأدبية والنقدية, د/ أسامة محمد البحيري, ص٢٠٠.

(٣) ليبيا وأدب الديستوبيا, سالم العوكلي, جريدة الوسط, ليبيا, الثلاثاء ١٢ مارس ٢٠١٩, على الموقع: http://alwasat.ly/news/opinions

(٤) اليوتوبية, لايمان تاور سارجنت, ترجمة/ ضياء وزّاد, مراجعة/ مصطفى محمد فؤاد, مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, ط الأولى, ٢٠١٦ م, ص١٥.

القضايا الموجودة في الحاضر مثل: التلوث, والفقر, والانهيار المجتمعي, والقمع السياسي, ومحاولة تغيير الحاضر؛ لتلافي الوصول إلى هذا المستقبل الكالح, وقد بدأ الكتّاب والروائيون في تجسيد تخيلاتهم عن المدينة الفاسدة "التي تتمثّل في القبح المعماري, واستبداد الأنظمة, والنظرة السلطوية السائدة في المجتمع نتيجة للعالم الديستوبي الذي عاشوا فيه, ويبدو أن الكتّاب من خلال كتابتهم عن الفوضى كانوا في الوقت نفسه يبحثون عن النظام, ومن خلال الديستوبيا، يبحثون عن اليوتوبيا المفقودة، أو على الأرجح يتنبّؤون بنهاية اليوتوبيا, ويعبّرون بهذه الطريقة عن رفضهم القاطع للواقع المرير"[١], وكأنهم بذلك يرفضون القبول بحدود نهائية للحرية والسعادة، ويتجاوزون بخيالهم الواقع المحدود بما عُرف بـ(الرفض العظيم), أي: الاحتجاج ضد القهر غير الضروري, والنضال من أجل ضرورة قصوى من الحرية, وهم بذلك يرفعون شعار: (أن تحيا دون قلق), لكن هذه الفكرة تمكن صياغتها دون عقاب في لغة الفن وحدها, أما الفلسفة, والسياسات الواقعية فإن فكرة الحياة دون قلق سوف تتهم بأنها يوتوبيا[٢].

ومن الأعمال الأدبية العالمية التي تمثل هذا الاتجاه: رواية (عالم جديد جريء) لأدولف هكسلي ١٩٣٢م، ورواية الكاتب الإنجليزي جورج أورويل (١٩٠٣- ١٩٥٠م) التي تحمل عنوان (١٩٨٤م) (ألف وتسعمائة وأربع وثمانون)، والتي تعد درة أدب الديستوبيا ذات الطابع السياسي)[٣], ويبدو أن خيبات الواقع قد ألقت بظلالها على الكثير من الأعمال الروائية العربية, "التي نحا كتابها إلى ثيمات (الديستوبيا) تعبيرًا عن خيبة أملهم، ربما من واقع يزداد سوءًا وليسوا بقادرين على أن يجدوا بصيصًا للنور فيه, وربما جاءت هذه الثيمة في أحيان أخرى كنوع من المحاكاة لنمط أدبي استطاع أن يحقق نجاحًا في الغرب, واعتلت الكثير من مؤلفاته أكثر القوائم مبيعًا..., ويرى الناقد المصري يسري عبدالغني أن ثيمة الديستوبيا (أدب المدن الفاسدة) ليست جديدة في الرواية العربية، إذ نجد بعض ملامحها عند نجيب محفوظ, ويوسف إدريس, والشرقاوي, وغيرهم, بل يمكن أن نجد ملامح لها في كتب التراث, وبالذات التراث الشعبي، لكنها أضحت أوضح في السنوات الأخيرة، حيث إن هذا النوع يستدعي

---

(١) الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية (أورويل في الضاحية الجنوبية) لفوزي ذبيان, فاطمة پرچگانى, إضاءات نقدية، السنة ٨، العدد ٢٩، ربيع ١٣٩٧هـ- ٢٠١٨م, ص٣٣ (بتصرف).

(٢) ينظر: نهاية اليوتوبيا, السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة, راسل جاكوبي، ترجمة/ فاروق عبد القادر, عالم المعرفة, ع/ ٢٩٦, ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م, ص ١٧٩.

(٣) معجم المصطلحات الأدبية والنقدية, د/ أسامة محمد البحيري, ص٢٠٠, وللمزيد ينظر: الخيال العلمي مقدمة قصيرة جدًّا, ديفيد سِيد, ترجمة/ نيڤين عبد الرؤوف, مراجعة/ هبة عبد المولى أحمد, مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, ط/ الأولى, ٢٠١٦م, ص٨٠ وما بعدها.

الشعور باليأس والإحباط الذي يشعر به المبدع في مواجهة العنف والقهر, واللاأمل"[١], ومن الروايات العربية التي تمثل الأدب الديستوبي: رواية (الجليل والصعلوك) للكاتب محمد سالم، ورواية (عطارد) للكاتب محمد ربيع, ورواية يوتوبيا للدكتور/ أحمد خالد توفيق (١٩٦٢-٢٠١٨م)[٢], وهي محل دراستنا:

ثالثًا: ملخص الرواية:

تقع رواية (يوتوبيا) للدكتور/أحمد خالد توفيق, الصادرة عن دار ميريت, عام ٢٠٠٨م, في مائة واثنتين وتسعين صفحة, وتدور أحداث الرواية في المستقبل القريب عام ٢٠٢٣م, حيث ينقسم المجتمع المصري إلي طبقتين: الأولى بالغة الثراء والرفاهية, يتوفر لها كل مقومات الراحة والسعادة, تسكن مدينة (يوتوبيا), تلك المدينة التي تقع في الساحل الشمالي, والمحاطة بسور عال, ويحرسها جنود من سلاح المارينز الأمريكي المتقاعدين, والأخيرة: الطبقة الفقيرة, التي تعيش خارج هذه الأسوار في عشوائيات, انعدمت فيها أبسط الحقوق: فلا

---

(١) أدب المدن الفاسدة يجتاح الرواية العربية، حنان عقيل ونجاح غربي, صحيفة العرب، ركن الثقافة، العدد/١٠٥٣١, ٢/٢/ ٢٠١٧م، السنة/ ٣٩, ص١٥.

(٢) **أحمد خالد توفيق (١٩٦٢- ٢٠١٨م):** أديب مصري, وُلِدَ في ١٠ يونيو من عام ١٩٦٢م, بمدينة طنطا – محافظة الغربية– وتخرج في كلية الطب عام ١٩٨٥م, وحصل على الدكتوراه في طب المناطق الحارة عام ١٩٩٧م, ويبدو أن دراسته للطب قد أثرت في طريقة كتاباته وخلق شخصياته؛ فسلسلة **ما وراء الطبيعة** تدور حول رفعت إسماعيل –طبيب– أعزب في السبعينيات من عمره يعمل محاضرًا لأمراض الدم, كما أنه جعل أحمد عبد العظيم–بطل سلسلة **سافاري**– طبيبًا يعمل في الكاميرون, حيث يسيطر طب المناطق الحارة والعديد من الأمراض، وركز في هذه السلسلة على الكثير من الأمراض وأسبابها وتاريخها, كما ناقش فترة التكليف للطبيب في المناطق الريفية في كتابه الساخر "**الطريف في طب الريف**", بدأ أحمد خالد توفيق كتاباته بأول عدد من سلسلة ما وراء الطبيعة في يناير ١٩٩٣م, عن المؤسسة العربية الحديثة, كما كتب العديد من الروايات مثل: رواية (السنجة) عام ٢٠١٢م، ورواية (مثل إيكاروس) عام ٢٠١٥م، ورواية (في ممر الفئران) عام ٢٠١٦م، ورواية (شآبيب) عام ٢٠١٨م, بالإضافة لكتابته سلسلة من المقالات مثل: دماغي كده، وعشاق الأدرينالين، ومجموعة من القصص القصيرة الرائعة مثل: قوس قزح، وعقل بلا جسد, وله أعمال أخرى: كمقالات لجريدة التحرير الإخباري, واليوم الجديد، وإضاءات، أو تراجم، أو حتى موسوعات مثل موسوعة الظلام, وهادم الأساطير, المتخصصة في عالم الرعب بالاشتراك مع سند راشد دخيل، وغير ذلك الكثير والكثير فهو غزير الإنتاج حقًا, وتوفي في الثاني من شهر أبريل ٢٠١٨م, عن عمر يناهز خمسة وخمسين عامًا إثر تعرضه لأزمة قلبية. ينظر: موقع مصراوي, الاثنين ٢ أبريل ٢٠١٨م أحمد خالد توفيق في سطور, موقع اليوم السابع, الثلاثاء ٣ أبريل ٢٠١٨م, نبذة عن أحمد خالد توفيق, سطور: محمد الحصان, ١٨فبراير ٢٠٢٠م.

وينظر

موقع:

https://www.arageek.com/bio/ahmed-khaled-tawfik

طعام, ولا سكن, ولا علاج, بالإضافة إلى انعدام الخدمات؛ "لأن الدولة أعفت نفسها تمامًا من مسئوليتهم، وخصخصت كل شيء.. لم تعد هناك حكومة, أو لم تعد هناك حكومة تعبأ بنا, مع الوقت توقفت الرواتب, وتوقفت الخدمات, وذابت الشرطة, وبالتالي لم تعد علينا ضرائب"(١).

ومع وجود هاتين الطبقتين تنعدم الطبقة الوسطى وتختفي تمامًا, فينشأ عن ذلك الخلل المجتمعي طبقة تملك كل شيء, وأخرى لا تملك أي شيء, وقد أطلق عليها الكاتب: "أرض الأغيار", وفيها تتصاعد أحداث الرواية, وإذا كان مصطلح (يوتوبيا) يعني: الدولة الفاضلة, أو المثالية, بما فيها من قيم: العدل والمساواة, البعيدة عن قضايا الفقر, والبؤس, والأمراض, الخالية من الشرور: كالنهب, والقتل, والفساد, والظلم, كما صورها توماس مور في روايته, فإنها هنا تعني النقيض تمامًا أي ديستوبيا؛ لأن الكاتب قدم للمتلقي مدينة يوتوبيا المصرية زاخرة بكل ألوان السلبيات, والفساد, واللاأخلاق, وعلى الرغم من توافر أسباب الرغد والترف, ومظاهر البذخ, فإن ساكني هذه المدينة يعانون خرابًا روحيًّا؛ فالدين عندهم مجرد شكليات, وطقوس جوفاء بلا معنى.

وباحتيال الشاب اليوتوبي وصديقته للخروج من مدينة يوتوبيا, ونجاحهما في الوصول إلى أرض الأغيار متنكرين, تبدأ الأحداث في التصاعد؛ إذ يحاول الشاب اليوتوبي قتل فتاة من الأغيار, لكنه يفشل في ذلك, وينكشف أمره, فيتدخل أحد الأغيار (جابر) لإنقاذه, ومحاولة إعادته وصديقته إلى يوتوبيا, ومن خلال هذه المواجهة تدور أحداث الرواية كلها ويقدم الكاتب عالمين مختلفين متصادمين, وحين ينجح جابر في الوصول بالشاب اليوتوبي وصديقته إلى نفق سري يصلان من خلاله إلى أرضهما, يقوم اليوتوبي بقتله, وأخذ التذكار المطلوب منه (يده), والعودة به لأرضه, في مشهد يجسد للمتلقي أبشع مواقف الخسة والنذالة, وقد كان موت جابر كافيًا لإشعال فتيل الثورة، واستيقاظ (الأغيار) من نومهم؛ ليتمردوا على تلك الأوضاع بعد أن "تركوا أنفسهم يُسْرَقون كل هذا الزمن من دون أن يحركوا إصبعًا.. هم بهذا انحدروا إلى درجة أقل من مرتبة الحيوان.. حتى النحل يلدغك لو حاولت سرقة عسله, والدجاج ينقر أظفارك لو حاولت سرقة البيض.. بينما هم ظلوا خائفين صامتين"(٢).

وتنتهي الأحداث على بوابة مدينة يوتوبيا؛ حيث يستعد اليوتوبي, وأصدقاؤه الأمريكان, والإسرائيليون (حراس يوتوبيا) لمواجهة هذا الزحف, ومحاولة إخماد هذا الغضب, والقضاء على المطالبة بالثأر, ودفاعًا منه عن أرض يوتوبيا: "هذا لن يكون.. هذه أرضي وهذا عالمي.. ولدت هنا.. لو كان أبي قد سرق هذه الحقوق فهي قد صارت لي بحكم الوراثة، ولن أتخلى عنها من أجل أمثال (جابر) والمتسولين

(١) رواية يوتوبيا، أحمد خالد توفيق, دار ميريت، القاهرة، ط الأولى, ٢٠٠٨م, ص١٠٧.

(٢) نفسه, ص١٨٩.

وعاهرات الأزقة"[١].

وهكذا تنتهي أحداث الرواية نهاية مفتوحة تحمل التشويق للقارئ, وتنقل له ما يريد الكاتب تقديمه من تحذيرات من الوصول إلى هذا المستقبل البشع الذي ينتظره إذا استمرت الأوضاع على ما هي عليه, ولم نعد العدة لمواجهة مشاكل الحاضر.

شخصيات الرواية الرئيسة:

الشاب اليوتوبي: لم يذكر الكاتب اسمه, وإن كان قد عرف نفسه باسم (علاء), وهو ابن (مراد), أحد شباب مدينة يوتوبيا.

جرمينال: صديقة (علاء) التي شاركته مغامرة الصيد خارج أسوار مدينة (يوتوبيا).

جابر: أحد الفقراء الذي أنقذ علاء وجرمينال من فتك الأغيار بهما, واستضافهما في منزله, كما أعادهما إلى مدينتهما.

صفية: إحدى فتيات الأغيار, وأخت جابر, وهي فتاة مريضة بداء الدرن, تعيش مع أخيها.

الشخصيات الثانوية:

(مراد, ولارين): والدا الشاب اليوتوبي, (السرجاني, سمية, عبد الظاهر, بيومي, عزوز) وغيرهم.

****

المبحث الأول

مستويات الديستوبيا في الرواية

بدأ الكاتب تحديد البيئة المكانية التي نشأ فيها بطل الرواية, والتي كانت عنصرًا فاعلًا في تحريك الأحداث, ورسم الخطوط العريضة لوضعه الاجتماعي, وذلك من خلال حديث الشخصية الرئيسة (البطل اليوتوبي) عن السبب الرئيس الذي أدى إلى نشأة مدينة يوتوبيا, والذي أرجعه أولًا إلى الخلل الاجتماعي: "هناك خلل اجتماعي أدى إلى ما نحن فيه, لكنه خلل يجب أن يستمر.. كل من يحاول الإصلاح يجازف بأن نفقد كل شيء" [٢].

كما لخص للمتلقي سبب نشأة مدينة يوتوبيا في مشهد اعتدائه على (صفية) أخت (جابر), وقد حصره في: حماقة الأغيار, وغبائهم, وخنوعهم, وعدم اغتنام الفرص: "ليس فقركم ذنبنا.... ألا تفهمين بعد أنكم تدفعون ثمن حماقتكم وغبائكم وخنوعكم؟....عندما كان آباؤنا يقتنصون الفرص كان آباؤكم يقفون أمام طوابير الرواتب في المصالح الحكومية, ثم لم تعد هناك مصالح حكومية.. لم تعد هناك رواتب....أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرًا لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لا يوجد قاع....ما ذنبنا نحن؟.... عندما هب الجميع ثائرين في كل قطر في الأرض, هززتم أنتم رؤوسكم وتذرعتم بالإيمان والرضا بما قسم لكم.... تدينكم زائف تبررون به ضعفكم.... أنتم أقل منا في كل

(١) الرواية, ص١٩٠.

(٢) الرواية, ص١٦.

شيء.. هذه سنة الحياة.. يجب أن تقبلوها.. لم يعد أحد قادرًا على تغيير أي شيء.. شيء.. شيء....!"[١].

أما (جابر) فقد قدم الأسباب الموضوعية لنشأة مدينة يوتوبيا, وتخلف الأغيار, والتي تمثلت في: انهيار السد العالي, وكساد قطاع السياحة, وافتتاح إسرائيل لقناة بديلة لقناة السويس, ونضوب البترول الخليجي أو الاستغناء عنه, مما أدى إلى طرد العمالة الوافدة, والضغط على الاقتصاد المصري: "بالطبع لا تفهمان شيئًا عن الوضع الذي صرنا إليه.. لكني أكره ألا أخبركما بكل شيء.. الصورة التي تريانها كانت موجودة منذ البداية لكن بشكل غير واضح, ثم تضخمت شيئًا فشيئًا.. يصير الأغنياء أغنى والفقراء أفقر.. ثم تأتي لحظة يحدث فيها الانهيار.. ويبدو لي أن هذا حدث في العشر سنوات الأولى من هذا القرن.. فجأة انهار السد.. لم تعد السياحة قادرة على إطعام هذه الأفواه.. إسرائيل افتتحت قناتها التي صارت بديلًا جاهزًا لقناة السويس.. الدول الخليجية نضب بترولها أو تم الاستغناء عنه بعد ظهور (البايرول), وطردت العمالة الوافدة.. هكذا وجد الاقتصاد عليه عبئًا قاصمًا, وانعدمت الخدمات للفقراء لأن الدولة أعفت نفسها تمامًا من مسؤوليتهم, وخصخصت كل شيء"[٢].

وقد استمر الكاتب في عرض أسباب حدوث الطبقية في المجتمع المصري, ونشأة مدينة يوتوبيا, من وجهة نظر (جابر), الذي أرجع نشأة مدينة يوتوبيا لأسباب اتفق في بعضها مع الشاب اليوتوبي, مثل ذكاء الطبقة الثرية في استخدامهم للنفوذ, واستغلال الفرص, كما زاد عليها أسبابًا أخرى منها: إهمال الحكومة لهم, وتجاهلها إياهم, واختفاء العنصر الأمني: "لم تعد هناك حكومة أو لم تعد هناك حكومة تعبأ بنا مع الوقت توقفت الرواتب وتوقفت الخدمات وذابت الشرطة وبالتالي لم تعد علينا ضرائب... كان آباؤكم من طبقة استطاعت أن تستخدم نفوذها للإثراء .. حسابات مصرفية في الخارج .. قروض من المصارف .. احتكار .."[٣].

ونتيجة لهذه العوامل استطاع البعض أن ينجو بنفسه, ويتمتع بالثراء, في ظل عزلة فرضها –مختارًا– في الوقت الذي ذابت فيه الطبقة الأخرى في قضايا الفقر, والقمع, والاستبداد, واستغلالها من الآخر: "كل شيء كان في مصلحة آبائكم وضدنا على طول الخط .. هكذا استطاعت هذه الطبقة أن تتماسك وتزداد ثراء بينما هوينا نحن إلى الحضيض .. لكن الحياة معنا صارت أمرًا مستحيلًا... اضطرت هذه الطبقات إلى أن تعزل نفسها طلبًا للأمان في تلك المستعمرات على الساحل الشمالي"[٤].

---

(١) نفسه, ص١٦٤, ١٦٥.

(٢) الرواية, ص١٠٦.

(٣) نفسه, ص١٠٧.

(٤) نفسه, ص١٠٧.

كما بيَّن السبب في استقدام رجال المارينز, والاعتماد عليهم في حفظ الأمن, بدلًا من أفراد أمن مصريين: "وقد استعملوا رجال المارينز لأنهم يضمنون ولاءهم بينما لا يضمنون ولاء البودي جارد المطحون بدوره .. إن فكرة أن يثور محيط الفقر هذا كانت تؤرقهم كل الثورات الشعبية في التاريخ بدأت بذبح الأثرياء"(١).

وقد كانت نتيجة هذا الانقسام أن ظهرت طبقتان في المجتمع المصري, طبقة ثرية فاحشة الثراء, وأخرى فقيرة لا تجد شيئًا من حطام الدنيا, تستغلها الطبقة الثرية لتنمية ثرواتها فقط: "هكذا تكون مجتمعان أحدهما يملك كل شيء والآخر لا يملك شيئًا.. أهمية المجتمع الثاني لا تزيد على كونه سوقًا استهلاكيًا لا بأس به.. حتى لو كان يعاني الفقر فإن كثافته السكانية تسمح بكل شيء.. لو ابتاع كل منا زيتونة فلسوف يصير بائع الزيتون مليونيرًا.."(٢).

أما عن ملامح الديستوبيا في الرواية فإنها تظهر عبر مستويين: الأول: الخراب النفسي بوجهيه: الروحي والعقلي, وظهور آفات مثل: الجمود العاطفي, وجحود حق الآباء, والاكتئاب, والملل اللذان يؤديان –عادة– إلى الانتحار, وتناقض الشخصيات وازدواجها, و واحتقار الآخر، أما المستوى الثاني: الخراب المادي المنظور, وشيوع قضايا: القتل, والفقر, والخراب, والعنف, والمرض, واجتماع هذين المستويين انتهاك للوجود الانساني, ووجودهما في مجتمع ما يحول هذا المجتمع إلى مجموعة من المسوخ البشرية يستحلون القتل, ويتجردون من إنسانيتهم, فالإنسان من خارج يوتوبيا ليس إنسانًا, بل هو خاضع لإرادتهم, ولا يعدو مجرد لعبة يتسلون بها, ويتلذذون بتعذيبها!.

أولًا: الخراب النفسي.

تكمن هذه الملامح في تنامي الأحقاد, وتغير طبائع المجتمع, ولا شك أن الإنسان ربما تعرض إلى ضغوط نفسية بسبب ما يحيط به من ظروف اجتماعية, كالغنى المطغي, أو الفقر الشديد, مما ينتج عنه –عادة– شيوع مظاهر الخداع, وعدم الاعتراف بالمبادئ, والحقوق, وفي الرواية كشف عن علاقة الولد بوالده في يوتوبيا؛ حيث يلقي الكاتب الضوء على العوامل المؤثرة سلبًا في تربية الأبناء ومنها: الترف الزائد, وحب المتعة والغرق فيها.

١- تحول العلاقة بين أفراد الأسرة

يبدو أن التحول الذي أصاب الأسرة المصرية المترفة نتيجة المؤثرات الحضارية, كان سببًا في تحول العلاقة بين أفراد الأسرة, وفتورها, حتى فقدت لفظة (أب, أم, ابن, ابنة) معناها: "جرمينال نائمة كطفل.. تتحرك شفتيها.. تهمس من روح معذبة: ليلى... ليلى... ليلى هي أمها طبعًا (فلا أحد في يوتوبيا يستعمل لفظة ماما أو بابا) .. للمرة الأولى أراها مجرد طفلة معذبة تريد العودة إلى أمها, لم أر جرمينال إلا ثائرة ملولًا متعالية, لا بد من النوم على الأرض كي تظهر لي

(١) نفسه, ص١٠٧.

(٢) نفسه, ص١٠٧.

حقيقتها.."[١], وقد استغل الكاتب كثيرًا من المواقف لتأكيد فكرة الجمود العاطفي بين أفراد الأسرة؛ ففي حوار يجمع بين البطل وأمه يتكشف للمتلقي سبب هذا الفتور, متمثلًا في بُعد الأب عن أسرته, وانشغاله عنها بجمع المزيد من الأموال: "لو عدت للكلام في هذا الموضوع سأخبر أباك!"

– (مراد) ليس هنا؟؟ إنه في سويسرا يراجع أرقام حساباته..

قلت لها في تحد:

– "(مراد) لا يتدخل في شؤوني.. هو أذكى من هذا.."

قالت وهي تلوح بإصبعها في وجهي:

– "للمرة الألف.. اسمه بالنسبة لك (بابا) وليس مراد.. أنا أسمح لك بأن تناديني باسمي بدلًا من كلمة (ماما) لكي أحتفظ بصداقتك, لكن هناك حدودًا يجب ألا تتجاوزها... وأنا لن أسمح لك بهذا.." [٢].

هكذا لا أحد في يوتوبيا يستعمل لفظة (ماما أو بابا), وإنما يتنادون بأسمائهم مجردة, كما أن انشغال الزوج عن أسرته بالعمل لجني المزيد من الثروة, أحدث نوعًا من الجمود العاطفي, بين الولد وأبويه, وجحود فضلهما, وعقوقهما وعدم احترامهما, إلى درجة أن يسمح الولد لنفسه بأن يمد يديه على أبيه, ويبادله صفعة بصفعة: "لا أقبل أن يمد أحد يده عليَّ.. حتى (مراد) و(لارين).. لقد رددت الصفعة لـ (مراد) ذات مرة.. أصيبت (لارين) بنوبة هستيرية لأنني مددت يدي على أبي, فقلت لها إن هذا ليس تفضلًا منه.. أما وقد جاء بي للعالم فعليه أن يتحمل مسؤولياته في شجاعة.."[٣].

٢– الملل= الانتحار

إذا كان جميع الناس يشعرون بالملل, فإن بعضهم لا يستطيع التعامل معه, وربما تطور الأمر ليصل إلى الاكتئاب, واستحسان فكرة الانتحار في ظل البحث عن الإثارة, وهذا ما طرحه الكاتب في روايته على لسان بطله: "إنها (يوتوبيا)... حيث يضنيك البحث عن طريقة تزجي بها كل دقيقة من حياتك..."[٤], ويأتي التساؤل في صورة ساخرة, عن سبب عدم الانتحار, الذي أرجعه إلى أنه لا بد أن يكون أنيقًا يتناسب مع رقيهم وتحضرهم: "لماذا لا ننتحر؟ .. لا أعرف.. الانتحار يبدو سوقيًا و(بلدي) جدًا .. يذكرك بكل هذا السخف عن الأغيار .. الفتى الفاشل في حبه يحرق نفسه .. يا للسوقية! ... كيروسين وضوء خافت وحي شعبي ودجاج.. بالذات الدجاج!.. كل هذا يجعل معدتي تتقلص.. الأب الذي فشل في إطعام أطفاله... الفتاة التي تبتلع الأسبرين.. نحن أكبر و أرقى من هذا الهراء .. لابد أن يكون الموت أنيقًا مسرحيًا"[٥].

والعجيب أن يحقد اليوتوبيون على الأغيار لا لشيء إلا لأنهم يمرضون, ويتعرضون

(١) الرواية, ص١٠٩.

(٢) الرواية, ص٢٩.

(٣) نفسه, ص١٢٤.

(٤) نفسه, ص١٩.

(٥) نفسه, ص٣١.

للحوادث القاتلة: "الأغيار يمرضون ويذهبون للعلاج في المستشفى, فتتقلب بهم السيارة التي ما زالت تعمل بالكيروسين في الترعة أو تصطدم بشجرة .. ليت الموت متاح بهذه السهولة هنا!.. إذن لكانت الإثارة عظمى... لا أعرف السبب لكن الحوادث نادرة عندنا وعندما تقع لا تقتل أحدًا.. من حين لآخر ترى مطاردة عنيفة بين سيارات الشباب .. غالبًا ما تنقلب سيارة أو اثنتان وهذا يضفي إثارة غير عادية على الحياة، لكن للأسف لا تستطيع قلب سيارة كل ساعة في اليوم..."(١).

لقد صار الموت بالنسبة لليوتوبيين لعبة يحلم بها المراهقون, لعبة يتطلعون دائمًا إلى تجربتها: "الموت.. اللعبة العظمى التي لم نجربها بعد.."(٢), "حيث يتوارى الموت خلف الأسلاك الشائكة فلا يصير إلا لعبة يحلم بها المراهقون في يوتوبيا "(٣).

وقد أدى ذلك إلى إصابة سكان هذه المدينة بالسادية, والتلذذ بالألم سواء في إيقاعه بالآخر, أم مشاهدته, أم مجرد السماع به : "القصص كثيرة بدءًا بالثورة الفرنسية حيث جاب الرعاع شوارع باريس وهم يعلقون ثديي الأميرة (دي لامبال) على رمحين وانتهاء بالثورة الايرانية في سبعينات القرن العشرين عندما وجد مدير (السافاك) على ما أذكر سيارته محمولة فوق الأعناق وهو فيها ومن ثم لم يجد حلًا إلا أن يدس المسدس في فمه ويضغط الزناد ...رباه...حتى وأنا أكتب هذه الكلمة شعرت بقشعريرة لذة... مسدس في فمك .. معدن بارد.. وضغطة تنهي كل شيء!"(٤).

٣- ازدواجية الشخصية = التدين الكاذب, وانتهاك القانون

معلوم أن التعامل مع الآخر هو الفيصل في الحكم عليه, ويبدو أن المصلحة الخاصة كانت المحرك الرئيس لسكان مدينة يوتوبيا, ولذا لبسوا قناع الورع, بالتدين المغشوش, وقد بين بطل الرواية سبب ذلك و "هو ولع الكبار بأن يجمعوا بين طابعي الثراء والورع .. الثراء والورع ثنائي محفور كما يبدو في عقول جيل الآباء المصريين منذ دهور, صورة الحاج (عبد السميع) النازل من الطائرة العائدة من الحجاز، والعباءة الواسعة غالية الثمن على كتفيه وهو يوزع المال باليمين والشمال, وعلى وجهه ابتسامة وقور متئدة, رائحة عطره الثمين الفاغم ومسبحته الذهبية .. يبدو أن هذه الصورة محفورة في أذهان آبائنا فعلًا. أنا قرأت في الأديان قليلًا، وارتبطت فكرة الزهد بالورع في ذهني, دعك من أننا نعرف بعضنا.. كل هذا الورع لن يقنعني بأنهم لا يعاقرون الخمور ويغتصبون نساء الأغيار ورجالهم طيلة الوقت.. لقد صنعوا ثرواتهم من لحم الأغيار وأحلامهم وآمالهم"(٥).

(١) الرواية, ص٣١.

(٢) نفسه, ص١٣.

(٣) نفسه, ص١٥.

(٤) نفسه, ص٢٢.

(٥)الرواية, ص٢١.

وإذا كان ولع الكبار بأن يجمعوا بين طابعي الثراء والورع, هو الدافع وراء ما يقومون به, فإن هناك سببًا آخر لهذا التدين المزيف, وهو خوفهم من فقدان هذا النعيم الذي يعيشون فيه, وكأنهم بذلك يتحصنون من زوال النعمة, وفيه دليل على ضعف الصلة بالله, وعدم اليقين به: "عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة للعمرة لا تتوقف لكن السبب كما أعتقد هو خوف سادة يوتوبيا من أن يفقدوا كل شيء في لحظة أن يصحوا ليجدوا أنفسهم وسط هذا الزحام يبتاعون شطائر من كبد الفئران ويشربون الكحول الأحمر"(١).

إن هذا التدين المزعوم أصبح معروفًا للجميع, حتى خارج يوتوبيا, فعندما حاول الأغيار الاعتداء على (جرمينال) لسرقتها الهاتف من البائع, أخبرهم جابر أنها تريد الاتصال بأخيها المخطوف في يوتوبيا, فكان ردهم: " لن يعود.. سوف يتسلون عليه ثم يقطعون يده ويلقون به في الصحراء, ثم يذهبون لأداء العمرة سائلين الله أن يغفر لهم.."(٢).

وعندما اشمئز الشاب اليوتوبي من أكل الدجاج الميت بلا ذبح, كان رد فعل جابر الدهشة؛ ذلك لأن اليوتوبيين كانوا يستحلون ذبح الأغيار بلا شفقة, متناسين أنهم مشتركون في الإنسانية: "قال في اشمئزاز: "دجاج ميت؟"

أطلقت صوتًا قبيحًا من حلقي وقلت:

– "هل حقًا يبالي قومك بالذبح الحلال أيها النصاب؟... يدققون جدًا في ذبح الدجاج لكنهم لا يدققون بصدد ذبحنا.. لا يسمون علينا ولا يحسنون قطع الوريد"(٣).

كما أوضح اليوتوبي سبب تدين الفقراء من وجهة نظره, وأنه يكمن في الأمل في حياة أفضل بعد الموت: "بعض هؤلاء القوم متدين, لأن الدين هو الأمل الوحيد لهم في حياة أفضل بعد الموت.. لا يمكن أن يتعذب المرء طيلة حياته ثم يموت فيتحول إلى كربون بلا ثواب ولا عقاب.. عندنا في يوتوبيا متدينون كثيرون والطائرات الذاهبة للعمرة لا تتوقف"(٤).

وقد ظهر مستوى الخراب النفسي (العقلي) في انتهاك القانون وعدم احترامه, وكان شعار مدينة يوتوبيا السائد: "افعل ما تريد طالما لم تعتد على مال باقي سكان يوتوبيا.. والأهم افعل ما تريد لكن أبقه سرًا حتى لا تضع على عاتقنا عبء أن نبدو حازمين, ولا تضع على ضمائرنا عبء أن نتظاهر بالشفقة"(٥).

بل إنهم لا يعترفون بالقانون, ولا يحكمونه بينهم, وإنما يكتفون بالأحكام العرفية التي تتم داخل مجلس مغلق على الطرفين المتشاكلين, ففي مدينة يوتوبيا قوانين خاصة, ولها محاكمها كذلك: "نحن لا نقحم أي طرف في مشاكلنا .. سوف يتعهد (عزام بك) بدفع ثمن ال...إلخ.. ابنك هو ابني والعكس .. الخ ... و(عزام بك)

(١) نفسه, ص٥٢.

(٢) نفسه, ص١٢٣.

(٣) نفسه, ص١٤٢, ١٤٣.

(٤) نفسه, ص٥١.

(٥) الرواية, ص٣٧.

يتعهد في وقار بدفع ثمن الـ... وهو يداعب حبيبات مسبحته الذهبية... جلسة عائلية تضم علية القوم في يوتوبيا، فهذا المجتمع قد أفرز قوانينه الخاصة ومحاكمه، هناك شاب قد أخطأ أو فعل ما يوجب حنق الكبار عليه .. الأخطاء هنا هي أن تدمر الملكية الفردية لآخر من يوتوبيا أو تسطو عليها.. (راسم) قد أفرط في الشراب فدمر جزءًا من مول (إليت) الخاص بمصطفى بك ربما سرق شيئًا.. لا أحد بحاجة للسرقة، لكنك بحاجة إلى إثارة وتوتر وإثم السرقة .. الكلبتومانيا أو داء الولع بالسرقة أكثر الجرائم هنا، والباقي يحدث في لحظة سكر بين أصدقاء لم يعودوا كذلك.. لحظة جنون... هذه النزاعات تتم تسويتها في مجالس مشابهة, وعامة يكون الفهم حاضرًا والاستعداد للترضية متوافرًا .. لا أحد يريد للخلافات أن تخرج من يوتوبيا"[١].

٤- احتقار الآخر:

الاحتقار شعور نفسي يجعل صاحبه ينظر للآخر نظرة استعلاء, وانتقاص, وازدرا؛ "فالحَقْرُ في كل المعاني الذِّلَّة, وكذلك الاحْتِقارُ, والحَقِيرُ الصغير الذليل"[٢], وهو ما اتصف به سكان مدينة يوتوبيا, من معاملة عنصرية لمن هم خارج أسوار مدينتهم: "لسبب ما لا أفهمه يصر هؤلاء على أن يعيشوا.. فعلًا لا أمزح هنا أو أبالغ, لو كنت من الأغيار لتركت عجلات السيارة تمر فوق أحشائي"[٣].

وقد ظهرت العنصرية, في احتقار الأغيار, والتندر عليهم حتى في أسمائهم: "هل تعرفين أنهم هناك لا يستعملون أسماء لارين وجرمينال..؟.. يستعملون أسماء مثل (باتعة) و(زكية) و(عطيات)..", وانفجرت ضاحكًا لا أعرف السبب بالضبط لكن الأمر راق لي كثيرًا.. قالت لي جرمينال وهي تدخن لفافة التبغ المحشوة الخامسة: أعرف هذا.. نراه أحيانًا في التلفزيون في تلك التمثيليات العتيقة" الحقيقة أن لنا تلفزيوننا الخاص الذي يعرض فقط ما تريده أنت.. نظام الكابل وسينما المنزل.. هناك إقبال عالٍ على أفلام الجنس والعنف والجريمة.."[٤].

وقد أبدت (جرمينال) دهشتها وتساءلت عن الأسباب التي تجعل العقول -داخل مدينة يوتوبيا, وخارجها- تتفق على القسوة , وحب العنف على الرغم من اختلاف البيئة:

"من الغريب أن الأغيار يقبلون على ذات الأفلام في تلفزيوناتهم الرخيصة لكن لأسباب تختلف.. حب العنف هنا سببه الملل.. حب العنف هناك سببه الفقر والغل المكبوت.... لماذا كان أباطرة روما وعامة الشعب يحبون مشاهدة العبيد يمزقون بعضهم؟ .. لماذا لم يكسب الفقر الفقراء رحمة؟.. ليت أحد علماء الاجتماع يفسر لي هذا.. على قدر علمي

(١) نفسه, ص٢٤.

(٢) لسان العرب: ابن منظور، مادة (حقر)، دار المعارف، (بدون), ٢/ ٩٣٩.

(٣) الرواية, ص٣١.

(٤) الرواية, ص٣٩.

يختلف مزاج الأباطرة تمامًا عن مزاج عامة الشعب، فلماذا يتفق المزاجان في شيء واحد هو القسوة؟"(١).

وقد أكد الكاتب على مرض سكان مدينة يوتوبيا بالطبقية, وحب العنصرية:

"في الحادية عشر تصل السيارة التي تنقل العمال لمناطقهم العشوائية نعم هناك عمال في يوتوبيا لأن هناك أعمالًا لا نستطيع القيام بها يأتون صباحًا بحافلة خاصة ويعودون بها ليلًا وهم تحت المراقبة في كل الظروف لا يتكلمون ولا يرفعون عيونهم لكنك تشم منها خليطًا مزعجًا من المقت والخبث والتملق والغضب المكبوت والرائحة الكريهة سنوات من القهر جعلتهم أقرب إلى الوحوش"(٢), وفي هذا تعرية للفئات المهمشة المطحونة داخل مجتمعنا المصري, وخارجه في عالمنا العربي, وكأن هؤلاء المهمشين لا قيمة لهم, ولا إنسانية: "تقرب رأسها من جرمينال كأنها تنين يطل من المقعد الخلفي.. تهمس: "معك سيجارة يا شابة؟"

مذعورة تهز جرمينال رأسها أن لا .. يا لسذاجة انعكاساتك!... لو أن كلبًا مسعورًا يتشممك لما تصرفت بهذا الشكل..."(٣).

ولا شك أن حياة التفكك الأسري, والجمود العاطفي, والتدين الكاذب, بالإضافة إلى الترف الزائد, إلى غير ذلك من المساوئ التي سادت مدينة يوتوبيا كانت الدافع الحقيقي لمثل هذه الأمور.

---

(١) نفسه, ص٣٩.

(٢) نفسه, ص٤٠.

(٣) نفسه, ص٤٤.

ثانيًا: الخراب المادي: الفقر, الجنس, انتشار المخدرات, القتل.

في هذا الجزء يحاول الكاتب تسليط الضوء على الواقع الفعلي للمجتمع المصري نتيجة انقسامه إلى طبقتين, وإبراز أهم القضايا التي تتعلق بالطبقة المهمشة, أو طبقة الأغيار كما أطلق عليها, فيكشف عن قبح الواقع بطريقة فنية تحمل نقدًا سياسيًّا اجتماعيًا حادًّا, تجسد للمتلقي تلك القضايا التي انحصرت في الخراب الواضح الذي يسود مدينة الأغيار, أو مصر الفقيرة, مصر العشوائيات, وفي ذات الوقت تحذير من هذا الخطر القادم, والمصير المحتوم, إذا استمرت الأوضاع على ما هي عليه.

١- الفقر ومظاهره:

لقد سلط الكاتب الضوء على الوضع الاقتصادي السيئ من خلال طبقة (الأغيار), التي يستغلها اليوتوبيون استغلالًا شاملًا, وقد اختار شخصيته الرئيسة الثانية من الطبقة الفقيرة الممثلة لمجتمع الأغيار، فأرانا كيف تعيش هذه الشريحة الكبيرة من السكان في الفقر, وإظهارًا لمدى فقره، يصوّر بيته الوضيع المليء بالفوضى: "كانت حالة الكوخ من الداخل أسوأ.. هناك إطارا سيارة يستعملان كمقعدين، وهناك موقد كيروسين صغير وهناك أكوام من الكتب لم أر مثلها في حياتي الدليل الوحيد على وجود كهرباء يأتي من مصباح واهن يتصل ببطارية سيارة عتيقة. وقد تم تعليق سلك المصباح على عصا تبرز من الخشب.. إضاءة

لعل الظلام منها أفضل منها وأكثر بهجة.. إضاءة سقيمة.. إضاءة خلقت كي تنطق كلماتك الأخيرة فيها قبل أن تخرج الرغوة البيضاء من فمك وتموت.."[١], في هذا الجو الموحش يعيش جابر, في حالة من الفوضى, تفتقر إلى أولويات حقوق الإنسان, وهو السكن المناسب, وإذا كان ذلك حال السكن, فإن شوارع المدينة تعمها الفوضى كذلك, في ظل بنية تحتية مزرية:

"الآن نخرج من منطقة السوق هذه كي نتوغل بين مجموعة من العشش الصفيح أو المصنوعة من البامبو وبقايا الأخشاب.. الأرض مبتلة تغوص فيها قدماك.. مزيج من الوحل وبقايا الغسيل والمجاري الطافحة.. أمشي في حذر لأن التعثر هنا نوع من الانتحار.."[٢].

كما أن الازدحام الشديد, معاناة أخرى تضاف إلى يوميات سكان هذه المدينة: "هكذا غادرنا الكوخ الحقير لنخرج إلى شوارع في غاية الازدحام والفقر.. هناك لمسات تدل على أنه كانت هناك حكومة يومًا ثم تخلت تمامًا عن كل شيء.. في الأزقة والشوارع الجانبية تحدث المشاحنات لأي سبب ومن دون مبرر.. إنها أخلاقيات الزحام.. ضع ست دجاجات في عشة ضيقة وراقب كم تصير مهذبة.. لو أن دجاجة واحدة لم تفقأ عين جارتها أو تلتهم أحشاءها فأنا مخطئ"[٣], ونتيجة لهذا الفقر المدقع الذي يعاني منه الأغيار, ظهر نوع آخر من الفوضى يتمثل في:

أ- ديستوبيا الشم والرائحة:

فالروائح الكريهة تفوح من شوارع المدينة، الأمر الذي أصاب حاسة الشمّ لدى السكّان فأزكمها, فلم تعد تلك الروائح تثير فيها أي اشمئزاز: "خليط عجيب من الروائح والأصوات والمشاهد.. الرائحة الأولى والرئيسة هي رائحة العرق.. في هذه الرائحة ذابت روائح غريبة من المأكولات والوحل والفضلات البشرية وربما الدماء"[٤], وإذا كانت تلك الروائح خليطًا من رائحة العرق, وروائح المأكولات, والوحل, والفضلات البشرية, والدماء, فإن التبوّل في كل مكان كان سمة من سمات منطقة الأغيار: "غادرنا الزحام فتأخرت جرمينال قليلًا جوار أحد الأزقة, وقالت إنها راغبة في قضاء حاجتها. قال (جابر) بلا مبالاة إن هذا بوسعها.. كل مكان يصلح.. الخدمات الصحية لا وجود لها لأن شبكة المجاري صارت تاريخًا.. في الماضي كانت الحكومة تتشدق بتجديد شبكة المجاري, لكنها أهملتها عندما صارت هناك وسائل أخرى للاستيلاء على المال وبعد ما صارت اللعبة واضحة: نحن لا نبالي بكم على الإطلاق.. فلتأخذكم مصيبة.."[٥].

ووجود هذه الروائح يتكرّر في الرواية ليؤكد على مدى الأزمة التي يعيشها السكّان, والمعاناة التي يكابدها الفقراء.

---

(١) الرواية, ص٩٩.

(٢) نفسه, ص٥٤.

(٣) الرواية, ص١١٧.

(٤) نفسه, ص٤٩.

(٥) نفسه, ص١٢٠, ١٢١.

ب- ديستوبيا البصر:

وقد كانت نتيجة طبيعية لانتشار الفقر؛ إذ ظهرت وتجسدت في الزحام الخانق, وتكدس الأطعمة المختلفة فوق العربات, وكذا المشروبات المنوعة, والخمور المغشوشة: "هناك عربات تكدست فوقها أطعمة.. خلائط من الأطعمة.. هناك كومة أرز وكومة من مادة عجينية بيضاء أعتقد أنهم يطلقون عليها اسم (كسكسي) وبرتقال ويوسفي ومشروبات ساخنة لا تعرف ما هي.. منذ زمن صار هناك باعة جائلون للخمور, ولكن أية خمر هذه؟.. زجاجة بحجم الكف ثمنها خمسون جنيه مع كل هذا التضخم!.. لو كان هذا بولًا لكان سعره أكثر من ذلك... الشطائر مشكلة أخرى... كومة من الشطائر.. شطيرة مليئة بما يزعمون أنه كبدة وثمنها عشرون جنيهًا!... لو كانت هذه أكباد فئران لما أمكن بيعها بهذا السعر..."(١).

كما ظهرت ديستوبيا البصر كذلك في رؤية أطفال الشوارع, وفي أكوام الثياب المتسخة المستعملة التي تباع بثمن زهيد: "طفل ضال أجرب يلتقط شيئًا من على منصة بيع ويفر به فتلاحقه اللعنات وتتطاير الشباشب خلفه.. أكوام الثياب المتسخة المستعملة تباع بمائة جنيه للقطعة"(٢).

وقد أكثر الكاتب من استعراض مظاهر الفقر, في محاولة منه لترسيخ فكرة أن قضية الفقر هي الأكثر قساوة, كما أنها مفتاح كل شر, فوصف للمتلقي المدينة, وسقوطها في مستنقع القذارة(٣).

ج- ديستوبيا الأكل:

وقد ظهرت ملامحها في أكل الميتة, وأكل الكلاب, بالإضافة إلى أكل الطعام الفاسد:

"تشد جرمينال يدي في عصبية فأنظر إلى حيث تشير.. هناك قفص خشبي عليه أكوام من جلود الدجاج بشعة المنظر.. المصيبة أن الناس يبتاعون هذه الأشياء.. أقاوم العصارة التي ارتفعت إلى حلقي وأجرها بعيدًا.. سوف تفضحنا بطريقتها الانفعالية الهستيرية هذه...

البائع يناديا: "تعال يا أخ.. منذ متى لم تطه الخضار على (زفر)؟.. هذه الجلود تؤدي الغرض تمامًا.. يرفع سلخة من الجلد ويلوح بها على سبيل الترغيب.... يبدو أن أرجل الدجاج رائجة كذلك.. الرؤوس.. الأجنحة.. لكن أين الدجاج نفسه؟.. حتى دجاجهم تحول فيما يبدو إلى عظام يكسوها الجلد فقط.. لا عضلات ولا أحشاء.."(٤).

وفي مشهد مرسوم بالألفاظ تتجسد الديستوبيا في تصاعد الأبخرة, وتكدس الدجاج النافق, فيما يشبه المقابر الجماعية: "من ساحة ميدان صغير, وهناك نحو خمسين من أمثالنا يعملون بلا توقف. هناك كومة في الركن من الدواجن النافقة. كومة ارتفاعها خمسة أمتار تقريبًا.. لا رائحة لأنها نفقت اليوم فقط في مزرعة ما خارج

(١) الرواية, ص٥٠.
(٢) نفسه, ص٥٣.
(٣) للمزيد من النماذج ينظر: ص٥١, ١٦٨, ١٦٩.
(٤) الرواية, ص٥٣.

القاهرة. على الكومة الثانية تقف مجموعة من النسوة يقمن بإزالة الريش.. هناك قيزانات ماء ساخن يتصاعد منها البخار.... ترتفع الكومة الثالثة من جثث الدجاج العارية.. ترتفع في كل لحظة.. لو كان البشر دجاجًا لكان هذا المكان مقبرة جماعية"(١), وقد ألجأتهم شدة الفقر, وعدم صبرهم على الجوع إلى أكل الطعام الفاسد, وتغلبوا على طعمه, ورائحته بالإكثار من وضع التوابل عليه: "نحن نكثر من التوابل لأنها تخفي طعم أي شيء.. تخفي طعم الدجاج الفاسد والفول الحامض والبيض الممشش.. التوابل هي السلعة التي لم يزدد سعرها لأنها ضرورية كي نبقى أحياء"(٢).

وفي تصوير للأزمة الاقتصادية التي ستفرض نفسها على مصر في تلك الفترة الزمنية, وانعكاساتها على الفقراء, قنن الكاتب لأمور يمقتها الطبع الإنساني, ويرفضها, ومنها مسألة أكل الكلاب, والمحرمات: "المعدة خاوية والجائع مجنون.. بعد كل هذا الجهد يضيع منا الكلب الذي ظللنا ننصب له الكمائن ثلاثة ايام؟.. متى يمكن أن تجد كلبًا آخر؟.. لم تعد هناك كلاب في الشوارع على الإطلاق.. لا قطط.. لا فئران.. نشوة الشواء في الخرائب والمزاح مع أنفاس الحشيش.. و(صفية) لم تذق أكلة محترمة منذ شهر؟.... سترون يا أولاد الـ(...)!!.. هذا الكلب لنا.. لنا وحدنا وسنموت على جثته!"(٣).

٢- فوضى الجنس:

أظهر الكاتب الحياة الجنسية بصورة فوضوية -سواء في مدينة (يوتوبيا) المدينة الغنية, أم مناطق الأغيار- وهي صورة صادمة, بعيدة كل البعد عما هو متعارف عليه في المجتمعات العربية, فضلًا عن كونها مجتمعات إسلامية, ففي (يوتوبيا) الجنس مباح, بلا قيود: "عاشرت كل فتاة راقت لي"(٤), والعجيب أن هذه الفوضى تتم تحت شعار قتل الملل, في انتقاص واضح للمرأة وقيمتها في المجتمع, وكأنها في مدينة يوتوبيا أصبحت وسيلة للترفيه لا أكثر: "(سوزان).. (كاتي).. (مايا).. (جرمينال)... لكني أفضل الأخيرة لسبب لا أدريه.. ليس الحب طبعًا.. مثيرة جنسيًا؟.. ربما.. لكني لم أعد أعرف إن كانت الفتاة مثيرة أم لا لأنهن يتشابهن في كل شيء.. قالت لي لارين في ضيق: "ألا تفعل شيئًا آخر بحياتك سوى النوم مع الفتيات؟ لقد صار هذا مملًا.....قلت: وماذا بوسعك أن تفعل في هذه الجنة الصناعية؟.. تنام.. تتعاطي المخدرات.. تأكل حتى يرهق الطعام أنفاسك.. تقيء حتى تتمكن من معاودة لذة الأكل.. نمارس الجنس"(٥).

كما أن عمليات الإجهاض تتم في حرية تامة, ولا يشوبها أي نوع من الاعتراض:

"اليوم أخبرت (لارين) أن (سوزان) حبلى... لقد صار هذا روتينًا في حياتنا... ما من فتاة فوق الثانية عشرة هنا لم تجرب هذه الأعراض

(١) الرواية, ص١٤١, ١٤٢.

(٢) نفسه ص١٠٦.

(٣) نفسه, ص٧١.

(٤) نفسه, ص١٦.

(٥) نفسه, ص١٨, ١٩.

وتألفها.. والنتيجة واحدة على كل حال.. سوف آخذ من لارين شيكًا وأعطيه للفتاة.. والفتاة سوف تقصد المركز الطبي لتتخلص من هذا الكابوس.. جراحة يوم واحد تنتهي سريعًا. فقط تضطر الفتاة للحياة بلا جنس لمدة شهرين وهذا ممل بحق..."(١).

أما في مدينة الأغيار فإن الأمر كان مختلفًا عن يوتوبيا؛ إذ إنه يتم بمقابل ماديّ أو اغتصاب: "مع كل هذا الفقر انهار حاجز الأخلاق وصار الجنس أسهل شيء يمكنك الحصول عليه.. الجنس مقابل أجر تافه فإن لم يكن فهو الاغتصاب"(٢).

ولذا صار البغاء أقوى من القانون والعرف: "على أبواب العشش تقف نساء قذرات بشعات المنظر يضحكن لي في إغراء.. أعتقد أن أصغرهن تجاوزت الخمسة والثلاثين منذ زمن, لكنها لا تمارس مهنتها بسبب تأخرها في الزواج بل من أجل المال.."(٣)

"على قدر علمي لم يصدر أي قانون بإباحة البغاء, لكنه صار ظاهرة حقيقية.. صار أقوى من القانون .. أقوى من العرف.."(٤).

وفي تجرد تام من ملامح الإنسانية ظهرت فوضى الجنس في مظهر آخر وهو التعدي على حرمة الموتى, ومعاشرتهم جنسيًّا, فيما أُطلق عليه (النكروفيليا): "ولأسباب كهذه يعبثون في المقابر ليلًا.. (أكمل) تحدث عن النكروفيليا أو مضاجعة الموتى, لكن الأمر لم يبد لي مغريًا"(٥).

٣- انتشار المخدرات:

ظهرت المخدرات على صفحات الرواية منذ البداية, كطقوس يومية لشباب مدينة يوتوبيا, كما ظهرت عند الحديث عن مناطق الأغيار, في محاولة من الكاتب إيصال رسالة للمتلقي مفادها: أن هذه الآفة إنما تظهر في المجتمع, وتتفشى بفضل عوامل مساعدة, ومنها: (البيئة المساعدة, توفر المخدرات, الفساد, انعدام العدالة الاجتماعية, ففي يوتوبيا جميع أنواع المخدرات مباحة, وفي متناول الجميع, مما أفقدها متعتها: "تضع قطرة منه على جلد ساعدك. وعندها ترى تلك النيران الفاتنة التي استمد منها اسمه.. تفيق بعد ساعات لتدرك أنك بحاجة للمزيد.. كنت قد بدأت تجاربي بالماريجوانا.. لا بأس بها.. جربت عقار (إكستازي) وجربت LSD.. مشكلة هذا الأخير هي أنك بالفعل لا تضمن أن تظل حيًّا حتى تفيق.. من كل مجموعة لا بد من واحد لا يتعاطاه كي يراقب الآخرين, ويطلقون عليه (حارس الرحلة).. عندما تتسلل الأيوفوريا إلى عقولهم يكون الوثب من الشرفة أو إشعال النار في النفس أو التحديق في قرص الشمس حتى العمى.... جربت عقاقير كثيرة جدًا.. نبتاعها من الحراس الأمريكيين, ولكن مشكلة المخدرات

(١) الرواية, ص١٨.
(٢) نفسه, ص٧٩.
(٣) نفسه, ص٥٤.
(٤) نفسه, ص٥٤.
(٥) نفسه, ص٢٥.

هي أنها تفقد إثارتها ما دامت متاحة.. ثمة جزء من اللعبة هو التحريم والندرة.. أن تتعاطاها خائفًا.. تتعاطاها قلقًا بصدد الجرعة الثانية.. عندما تتاح المخدرات في كل وقت تفقد أية لذة لها.. تصير مملة سوقية.. لم يعتد أبواي مراقبتي بهذا الصدد.. لا أحد يتدخل في حياتي على كل حال.. من حقي أن أتعاطى أي شيء وبأي ثمن, وإلا فما كان عليهما أن ينجباني"[١].

أما في مناطق الأغيار فهناك أنواع أخرى من المخدرات الشعبية, يتناولها الشباب هربًا من الواقع المعيش: "غابت جرمينال في الزقاق لربع ثانية ثم عادت راجفة وهي تصيح:

- " إنه مليء بالشباب النائم!"
- قال (جابر) ضاحكًا:
- "إنهم تحت تأثير (الكلة) ومسحوق الصراصير.. لا تخافي.. لو أن ملكة جمال الكون تعرت أمامهم لما حركوا ساكنًا.. هؤلاء انتهى أمرهم كرجال من زمن.. ربما انتهى أمرهم كبني آدميين أيضًا!"[٢].

٤- القتل = مطاردة الأغيار

من المفارقات العجيبة, وازدواجية الشخصيات, وتناقضاتها, أن تكون مدينة يوتوبيا التي تضج بكل ملامح الترف, وتوافر سبل الراحة, والتشبع بالملذات: حلالها وحرامها, أن تكون أفكار سكانها مناهضة للإنسانية! وأن يكون الإنسان -في نظر سكان يوتوبيا- خارج أسوارهم لا يختلف كثيرًا عن الحيوان, ولا يملك أية حقوق, ولا عصمة لدمه: "لا يوجد هدف أوضح من رجل مجرد من السلاح وسط رمال الصحراء.. رجل أنهكه الركض.. رجل أنهكه الجوع.. رجل أنهكه القنوط... لا تقاوم يا أحمق! ما الذي تمنحك إياه لحظات أخرى من العيش مع الأغيار...؟ ما الذي لم تحققه في سنواتك العشرين السابقة وتنوي أن تحققه لو ظللت حيًّا؟ فرارك هذا لا يختلف عن فرار الصرصور على جدار المطبخ! أو أميبا تنزلق تحت عدسة مجهر... صرخة غريزة لا أكثر. إنه تفاعل التحاشي الذي زرعته الطبيعة فيك وعليك أن تتعلم كيف تهمله كي تظفر براحة استحققتها... انطلقت الرشاشات فنظر لأعلى.. نعم.. هذه الطلقات من أجلك أنت.."[٣], هكذا صور الكاتب الإنسان خارج أسوار يوتوبيا كأنه مجرد "صرصور على جدار المطبخ! أو أميبا تنزلق تحت عدسة مجهر!" والمطلوب منه عدم المقاومة, ولذلك فإن صيد الأغيار أصبح لعبة يتسلى بها شباب يوتوبيا؛ للتغلب على نمط حياتهم الرتيب الذي يعيشونه, وبحثًا منهم عن الإثارة: "بلا مقدمات قلت لها: "أنا راغب في تجربة الصيد.." شهقت..... قالت في ذعر وقد اتسعت عيناها: "هل ينقصك شيء؟.. معك من المال ما يكفي لتشتري يوتوبيا كلها... وما حولها... لديك من الفتيات ما يشبع شهوات سلطان فحل من سلاطين ألف

(١) الرواية, ص١٧.

(٢) نفسه, ص١٢١.

(٣) الرواية, ص١١, ١٢.

ليلة وليلة؟؟.. لديك من وسائل التسلية ما يسري عن جيش من اليتامى الباكين"

– "وأحفادهم كذلك.."

– "إذن ما المشكلة؟"

– "المشكلة هي هذا كله.. لدي كل شيء.. حان وقت الشيء الوحيد الذي لم أجربه ولم أظفر به.."[١].

وفي حوار مع صديقته (جرمينال) أخبرها فيه عن عزمه على تجربة الصيد, بحثًا عن الإثارة والشعور بالخطر: "لقد قررت أن أخوض التجربة.. أريد أن أحضر تذكارًا".. شهقت في جزع وإن لم يبد أنها مذعورة حقًا فأضفت: "نحن هنا ذقنا كل المتع.. نفس ما مر به نيرون وكالجولا.. لم يعد من شيء يضفي الإثارة على الحياة مثل أساليب هذين.."

قالت هامسة: "لكن هذا خطر.. أنت تعرف هذا.. هناك يكرهوننا بجنون ولو رأونا بينهم فسوف...."

–"هذا هو ما أريده.. الخطر.. الموت"[٢].

وقد تعلل بأن صيد البشر معروف, بين بعض القبائل قديمًا, بل كان نشاطًا رياضيًّا في القرن الماضي: "ليس صيد البشر غريبًا إلى هذا الحد.. أنا قرأت عن الموضوع كثيرًا.. هل تعلم أن صيد قبائل البوشمن[٣] كان نشاطًا رياضيًّا مسموحًا به في القرن الماضي؟ وفي عام١٨٧٠م انقرض آخر البوشمن من (الكيب) نتيجة لكثرة الصيد.... برغم أن الصيد غير قانوني في يوتوبيا فإن الكبار كانوا يتجاهلونه ما دمنا لا نكشف عنه علنًا.. وهو شعار يوتوبيا العام"[٤].

ومع تطور الأحداث, والتقاء الثنائي اليوتوبي بجابر, حكى لهما عن عزوز صديقه الذي قتله ثلاثة شبان من يوتوبيا: "كان عزوز ضخم الجثة له عين يسرى ترف طيلة الوقت, كأنه يتوقع الشؤم منذ ولد.. عزوز دخل الخرائب ليقضي حاجته في تلك الليلة عندما ظفر به ثلاثة من يوتوبيا.. اضطروا لقتله عندما لم يتمكنوا من خطفه.. هرع الجميع إلى الخرائب على ضوء المشاعل.. وهناك جوار جدار وجدوا جثة عزوز وقد مزقتها الطعنات, فقط لم يكن له ساعد.. لقد تعب فتية يوتوبيا كثيرًا حتى

---

(١) نفسه, ص٢٨.

(٢) نفسه, ص٣٦.

(٣) شعب بوشمن مجموعة عرقية بدائية تعيش في صحراء كالهاري التي تتوزع بين بتسوانا وناميبيا وجنوب أنغولا، وتتوزع قبائل البوشمن ما بين بتسوانا وناميبيا, يبلغ عددهم الآن حوالي ٨٢ ألف نسمة، وتشير الدلائل إلى أن مجموعات البوشمن عاشت في مناطق جنوب أفريقيا منذ حوالي ٢٢ ألف عام مما يجعلهم من أقدم المجموعات العرقية، إن لم تكن الأقدم على الإطلاق في أفريقيا، ويختلف شعب بوشمان عن الزنوج ببشرتهم البنية المصفرة وقاماتهم القصيرة وجباههم البارزة وعيونهم الضيقة. حتى عام ١٩٥٠م لم يكن العالم يعلم عنهم شيئًا حتى كتاب (لورانس فان در بوست) كتاب مملكة كالاهاري المفقودة. ينظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة, https://ar.wikipedia.org.

(٤) الرواية, ص٣٦.

انتزعوه, ومن الواضح أنهم لا يملكون خبرة الجزارة في التشريح, لكن لو لم يأخذوا تذكارًا لما صدقهم أحد في يوتوبيا عندما يعودون.. ابتعدت الطائرة .. لكنها تركت المزيد من الحقد الأعمى الأسود الذي لا يجد قناة ليسيل فيها.."(١).

وقد أجمل الكاتب صفات الطبقتين على لسان (جابر), في بيان لأوجه التشابه بينهما:

"لا أريد دمًا.. لا أريد قتلى..

الأهم أن كل لحظة تشعرني بأن وجوه التشابه بيننا قوية جدًا..

كلانا هنا وهناك نعشق العنف..

كلانا هنا وهناك نحب المخدرات..

كلانا هنا وهناك نرى أفلام الاغتصاب في نهم..

كلانا هنا وهناك نتكلم عن الدين طيلة الوقت..

هناك يتعاطون المخدرات ليفروا من الملل..

هناك يحترفون الدين لأنهم يخشون أن يضيع هذا كله, وهم لا يعرفون لماذا ولا كيف استحقوه...

هنا نتعاطى المخدرات لننسى عذاب اللحظة.. هنا نحترف الدين لأننا لا نطيق أن تكون معاناتنا هباءً بلا ثمن.. العقل البشري لا يتحمل فكرة مروعة كهذه وإلا جن... لهذا لا أريد دمًا.. لا أريد قتلى..."(٢).

(١) نفسه, ص١٠٢, ١٠٣.

(٢) الرواية, ١٣٢.

المبحث الثاني

البناء الفني للرواية

أولًا: الأحداث

إذا كانت كلمة الحدث في الاستخدام العام تعني الواقعة المهمة التي تخرج عن المألوف, فإنها في القصة أو الرواية تعني: الانتقال من حالة إلى أخرى؛ إذ إنها عبارة عن مجموعة من الوقائع الجزئية مرتبطة ومنظمة على نحو خاص(٣).

فالحدث هو "كل ما يؤدي إلى تغيير أمر, أو خلق حركة, أو إنتاج شيء, ويبدأ الحدث عندما تنشأ رغبة, أو حاجة, أو خوف (موضوع الرغبة) فتسعى إحدى القوى إلى تحقيق هذه الرغبة (الذات) متأثرة بقوة محركة أو محرضة"(٤), ولذا عدّه الدكتور طه وادي معادلًا موضوعيًّا "لقضية فكرية يريد المؤلف أن يوصلها إلى المتلقي بشكل فني, وبناءً على ذلك يكون الحدث هو الحكاية الفعلية التي تقوم بها الشخصيات, ويتكون من أفعال وأقوال مستمرة من بداية الرواية إلى نهايتها"(٥), واشتراط

(٣) ينظر: معجم السرديات, إشراف: محمد القاضي, الرابطة الدولية للناشرين المستقلين, ط الأولى, ٢٠١٠م, ص١٤٥. وينظر: الأدب وفنونه، د/عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي, ط التاسعة, ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م, ص١٠٤.

(٤) معجم مصطلحات نقد الرواية, د/ لطيف زيتوني, دار النهار للنشر، لبنان, ط الأولى, ٢٠٠٢م، ص٧٤.

(٥) دراسات في نقد الرواية, د/ طه وادي, دار

الدكتور طه وادي لاستمرار الحدث من بداية الرواية إلى نهايتها يؤكد على أهمية الحدث؛ باعتباره عنصرًا رئيسًا من عناصر البناء الفني للرواية, ولذا كان للحركة أهمية كبرى في جعل الحدث حيًّا, والموقف مثيرًا وفاعلًا؛ لكي تبدو قصة الرواية مترابطة, ومنتظمة, متسمة بالحيوية, كما تجعل الفكرة أشد وقعًا في النفس(١).

وتصنف الأحداث من حيث أهميتها ودورها في البناء الروائي إلى قسمين: أحداث رئيسة, وأحداث ثانوية, وعند التأمل في رواية (يوتوبيا) نجد للأحداث بنوعيها حضورًا بارزًا:

الأحداث الرئيسة:

المقصود بالأحداث الرئيسة هي تلك الأحداث التي لا يمكن حذفها, أو الاستغناء عنها؛ لأن ذلك سيؤدي إلى خلخلة البناء, وإحداث فجوات يصعب ملؤها, أو تفسيرها(٢).

وعلى الرغم من كثرة الأحداث في رواية يوتوبيا, وتنوعها, فإنها بُنيت على أربعة أحداث رئيسة: (فكرة الصيد- دخول منطقة الأغيار- لقاء فتاة الليل وظهور جابر- قتل جابر), هذه الأحداث الأربعة شكلت الرواية, وكانت الدافع والمحرك لباقي الأحداث.

ويمكن القول إن البداية الحقيقية للرواية تبدأ من فكرة الصيد والإعلان عنها, إذ عرض الشاب اليوتوبي فكرته على أمه أولًا, مفصحًا عن سبب رغبته, في أنه يريد أن يجرب شيئًا جديدًا لم يظفر به من قبل: "لدي كل شيء.. حان وقت الشيء الوحيد الذي لم أجربه ولم أظفر به.."(٣), وعندما أخبر صديقته (جرمينال) عن عزمه على تجربة الصيد, وأنه يريدها معه اعترف لها بأن ما يريده هو الشعور بالخطر: "هذا هو ما أريده.. الخطر.. الموت"(٤).

ولذا رسم خطته بعناية, إذ قرر أن يتنكرا في ثياب العمال, وأن يستقلا سيارتهم لكي يتمكنوا من دخول المناطق العشوائية, وقد نفذا ذلك بالاحتيال على رجل وامرأة من العمال؛ بعد أن أغراهما بشيء من الطعام الشهي: "قلت له في ترغيب: هل تريد قضمة؟

نظر لي في حذر كذئب يدعوه أحدهم لقطعة لحم, ولم يرد.. نظرت حولي ثم قلت هامسًا: لا أستطيع أن أعطيكها هنا.. تعال خلف هذا الجدار.. لو رآنا أحد الحراس لكانت مشكلة لك" .. هنا درات جرمينال حول الجدار, ثم هوت على رأسه بقطعة قرميد أخفتها في حقيبتها.. وعلى الفور تعاونا في الظلام على نزع ثيابه وارتديتها أنا"(٥), وهكذا تكرر السيناريو مع جرمينال بذات الخطوات, وبعد نجاحهما في

المعارف, ط الثالثة, ١٩٩٤م, ص٢٩.

(١) الحدث في قصص فارس سعد الدين السردار, د/ نبهان حسان السعدون, مجلة دراسات موصلية, ع/ ٤١, رمضان ١٤٣٤ هـ- ٢٠١٣م, ص٣ (بتصرف).

(٢) ينظر: البناء الفني في الرواية السعودية, د/ حسن الحازمي, دار النابغة للنشر والتوزيع, ط الثانية, ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م, ص٤٩.

(٣) الرواية, ص٢٨.

(٤) نفسه, ص٣٦.

(٥) نفسه, ص٤١.

الدخول إلى أرض الأغيار, انطلقا بحثًا عن فريسة يسهل قنصها, فوقعت عيناه على فتاة ليل تغمز له, فراقت له فكرة أن صيد النساء أسهل, وأقل خطورة من صيد الرجال, وعندما ابتعد معها انهال على جذور رقبتها بضربة من سيف يده فسقطت على الأرض بلا حراك, وعندما مد يده في جيبه ليخرج المدية كي ينجز مهمته سمع حركة ورأى عشرة من الشباب يحيطون به, وجرمينال, وسمع من يقول: "إنهما ليسا منا!.. هذان من يوتوبيا!!"(١), وعندما همَّ هؤلاء الشباب بالفتك بهما, تدخل جابر لإنقاذ الشابين: "لا تؤذوهم يا شباب.. إنهم أبرياء.. أنا رأيت الفتاة تسقط ولم يلمسها أحد.."

قال أحدهم: "أنا رأيته يضربها يا جابر" قال جابر: "أنت لا ترى شيئًا يا بن الـ(...) لقد أطارت الكلة عقلك وأعمتك"(٢), وبعد إنقاذ جابر لهما, استطاع أن يوصلهما إلى يوتوبيا عن طريق نفق سري يستخدمه الأغيار في التسلل لمدينة يوتوبيا, وعند فتحة النهاية من النفق, وبعد أن استدار جابر للعودة إلى موطنه, انهال عليه اليوتوبي بحجر فأرداه قتيلًا: "صرخت جرمينال في هيستريا: لماذا فعلت ذلك؟ لقد ساعدنا!"

قلت وأنا أقوم بما يجب أن أقوم به: "وانتهى دوره عند هذا الحد! إنه أحمق ويجب عليه أن يدفع الثمن.. أنا لن أقوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تذكار.."(٣).

وقد كان هذا الحدث الأخير سببًا في إشعال نار الثورة في صدور الأغيار ضد اليوتوبيين: "قال مراد: –" هناك كلام يتناثر هنا وهناك... ثمة شيء يتحرك في أرض الأغيار.. إنهم يتحركون ضدنا.."

–" وما الجديد؟.. إنهم يفعلون هذا مرتين في العام ويخبو حماسهم بسرعة.."

–"هذه المرة هم أعنف وأكثر تصميمًا وتنظيمًا.. يقولون إن أحدهم ساعد اثنين من يوتوبيا على النجاة من أرض الأغيار وجعلهما يعيشان تحت سقفه, لكنهما قتلاه وقطعا يده بعد ما اغتصبا أخته العذراء! وجدوا جثته في نفق يستخدم للتسلل إلى هنا.. القصة تسللت إلى كل كوخ وكل زقاق هناك وأشعلت النفوس.. لقد تحملوا الكثير لكن يبدو أن هذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.."(٤).

هذه هي الرواية بأحداثها الأربعة, وقد جاءت هذه الأحداث مترابطة, ومتناسقة, يفضي الواحد منها إلى الآخر, بحيث لو أسقط الكاتب أحدها لأدى إلى خلل في البناء, كما يتضح أن هذه الأحداث كانت نتيجة لفكرة وحيدة هي (لعبة الصيد) وهو الحدث الذي يمثل الحاضر الروائي, كما كانت حافزا على متابعة القراءة.

والملاحظ على الرواية أنها قسمت إلى أجزاء متعاقبة: الصياد, والفريسة: خمسة أجزاء بدأت

(١) الرواية, ص٥٨.

(٢) نفسه, ص٩٦.

(٣) نفسه, ص١٧٨.

(٤) نفسه, ص١٨٧.

بالصياد وانتهت به[١] وكأن أكثر أحداث الرواية يقدم من وجهة نظر الصياد (الشاب اليوتوبي), وأخرى من وجهة نظر الفريسة (جابر).

الأحداث الثانوية:

الحدث الثانوي هو الذي يمكن حذفه, والاستغناء عنه, دون أن يؤدي إلى إحداث خلل في البناء الروائي, أو شعور المتلقي بوجود فجوة في أسلوب السرد, ولا يعني ذلك عدم أهمية الأحداث الثانوية, أو أن سردها في الرواية من باب الإقحام, أو الافتعال, وإنما تكتسب هذه الأحداث أهميتها مما يمكن أن تؤديه من وظائف؛ فقد تسهم في بناء الحدث الرئيس بالتقديم له, أو تفصيله, أو يكون الحدث الثانوي تطويرا يقود للحدث الرئيس, أو يكون إضاءة لبعض جوانب الشخصية الرئيسة, أو تقديم شخصية ثانوية لها دور بارز في أحداث الرواية, مما يؤدي إلى إغناء الحبكة, وجعل مجال الرؤية القصصية أكثر رحابة[٢].

وقد نجح الكاتب أحمد خالد توفيق في توظيف الأحداث الثانوية في روايته (يوتوبيا)؛ ففي السطور الأولى نقرأ مشهد قتل أحد الأغيار, الذي جاء صادمًا للقارئ مع عنوان الرواية التي ظن أول وهلة من اسمها أنه سيقرأ عن مدينة فاضلة, وقد أسهم هذا الحدث في تصوير البيئة التي يعيش فيها بطل الرواية, كما أضاء البعد النفسي لشخصيته مُظهرًا ساديته, وفقدانه لمشاعر الإنسانية: "عندما يصير الموت أكبر من الحياة.. عندما يصير الموت ضربًا من الجمال الفني"[٣].

كما عمد الكاتب إلى إجمال بعض الأحداث التي كانت مقدمة للحدث الرئيس وهو لعبة الصيد, الناتجة عن الملل, ومحاولة كسر روتين الحياة اليومية:

"أصحو من النوم.. أفرغ مثانتي.. أدخن.. أشرب القهوة أحلق ذقني.. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعًا.. أضاجع الخادمة الأفريقية.. أتناول الإفطار... أصب اللبن على البيض وأمزق كل هذا بالشوكة.. ألقي بالخليط المقزز في القمامة... أضحك.. أبصق... ألتهم اللحم المحمر.. أدس إصبعي في حلقي.. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي على البساط.. أضحك.. أدس إصبعي في أذني.. آخذ زجاجة ويسكي من البار وأجرع منها.. أرقص.. أترنح.. أقف فوق أريكة.. أتقلب على البساط.. أقرأ الجريدة التي لا تزيد على اجتماعيات يوتوبيا... كل مستعمرة لها جريدتها الخاصة لكن هناك جرائد عامة لا تستطيع قراءتها من فرط ما فيها من سخف.. أخرج أنبوب الفلوجستين.. أصب قطرات على جلدي.. أنتشي.. أرى النيران الخضر أضحك.. أمشي

(١) ينظر الصفحات: ٩, ٦١, ٩٣, ١٢٩, ١٥٩.

(٢) ينظر: البناء الفني في الرواية السعودية, ص٦٠. ولمزيد من التفصيل ينظر: الفن القصصي في ضوء النقد الأدبي: النظرية والتطبيق، د/ عبد اللطيف محمد السيد الحديدي، دار المعرفة- المنصورة, ط الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، ص ١٦٤.

(٣) الرواية, ص١١.

عاريًا في الردهة.. ألبس ثيابي.. أرسم على الجدار بقلم الفحم شعارات تقول: اقتلوا البيض.. لا أعرف معنى هذا ولا من هم البيض لكنهم هكذا يفعلون في السينما.. أشغل بعض موسيقا الأورجازم.. الإيقاع الجديد الذي ظهر منذ عام.... أرقص.. أقيء.. آكل من جديد.. ساعة واحدة فعلت فيها كل شيء ولم يبق شيء في الحياة يهمني أو أريده !!!!"[١].

ويأتي حدث فقد (جابر) لإحدى عينيه إضاءة للبعد الجسمي للشخصية, وتوضيحًا للسبب الذي أدى إليه: "قالت لي إنه مفترس.. إنه يغار عليها.. إنه يحمل مطواة قرن غزال يمكنه أن يرشقها في زجاج نظارتي. (السرجاني) الضخم يشتهيها.. يعتقد أنها له. بعد أن ينالها قد يضمها إلى سمية.. وجاء اليوم المحتوم الذي انتظرناه في رعب.. أنا أردت أن أعرف.. هي أرادت ان تعرف.. السرجاني أراد أن يعرف.. لا أذكر سوى أنه كان ينفخ من منخريه كالثور.. لا أذكر سوى أنه كان يمزق لحم ساعديه وصدره بنصل مطواته بلا سبب واضح, فقط ليريني أنه لا يخاف شيئًا.. لا أذكر سوى الطعنة.. شق يبدأ من الجفن العلوي ويمر بالقرنية وينتقل إلى الجفن السفلي.."[٢].

وهكذا جاءت الأحداث الثانوية في الرواية لتحقيق وظيفة فنية محددة؛ إذ أسهمت في إضاءة بعض جوانب الشخصيات, كما ساعدت في تصوير البيئة, والتمهيد لأحداث رئيسة.

(١) الرواية, ص٢٦.

(٢) نفسه, ص٧٣.

أسلوب قص الأحداث:

تميزت رواية (يوتوبيا) بالمغايرة سواء في طرح الفكرة, وأسلوب السرد؛ فالفكرة تحكي عن عالم مستقبلي عام ٢٠٢٣م, أما أسلوب السرد فقد اعتمد الكاتب على طريقة السيرة الذاتية؛ إذ لجأ الكاتب إلى سرد الأحداث بلسان شخصية من شخصيات الرواية، مستخدمًا ضمير المتكلم، وتقديم الشخصيات من خلال وجهة نظرها الخاصة، فيحللها تحليلًا نفسيًّا, ممَّا يتيح له التعريف بأبعاد الشخصية الداخلية والخارجية، وقصِّ الأحداث والمواقف، وتصوير معاناتها, فتؤدي دور الراوي وتتولى حكاية الأحداث بضمير المتكلم من خلال موقعها منها, ومشاركتها مع بقية الشخصيات[٣].

ففي الجزء الأول من الرواية تحكي الشخصية عن أحداث حياتها اليومية, وتكشف عن صراعها الاجتماعي, والنفسي, والفكري, في تركيز واضح من الكاتب على إبراز العُقَد, والأفكار الغريبة التي تكتنف شخصية الشاب اليوتوبي, كما تمهد للحدث الدرامي[٤], وفي الجزء الثاني يقدم الكاتب شخصية (جابر) من

(٣) ينظر: الصراع الحضاري في الإبداع القصصي السعودي, للباحثة أمل عبد الله زين العابدين أحمد برزنجي, مخطوطة دكتوراه, كلية الآداب, جامعة أم القرى, المملكة العربية السعودية, ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م, ص٤٩٣.

(٤) ينظر الرواية, ص١١ وما بعدها. وللمزيد من النماذج ينظر: ص١٥ وما بعدها, ص١٨ وما بعدها, ص٢٦, وما بعدها, ص٢٨ وما بعدها, ص٣٧ وما بعدها.

خلال طريقة السرد الذاتي, إذ يقوم جابر بقص أحداث حياته, وتلمس أبرز المحطات فيها, ومن خلال المونولوج تبرز النظرة السوداوية, و تعلو النبرة التشاؤمية لهذا المصير المنتظر لتلك الشخصية: "أعرف أنني سأموت بعد يومين فلا تقل العكس.. لا تكرر هذا الهراء وإلا طعنتك بمطواتي"(١).

كما اعتمد الكاتب على هذا الأسلوب في تقديم بعض شخصياته الثانوية, مثل شخصية (عبد الظاهر), الذي كان يخطط لسرقة البايرول من مدينة يوتوبيا, والذي نجح بعد ذلك في تنفيذ خطته: "عبد الظاهر بلطجي لكنه جدع.. أعترف أنني أحبه وأثق فيه, خاصة عندما لا يساوره ذلك الهاجس المرضي ويروح يحكي لنا خطته بصدد البايرول ويوتوبيا.."(٢).

وبهذا الأسلوب السردي ركز الكاتب على الذات, وإبراز البعد النفسي للشخصيات, وتوضيح العلاقات بينها, ومن ثم الكشف عن العلاقة المستبدة التي تربط اليوتوبيين بمجتمع الأغيار.

ثانيًا: رسم الشخصيات

إذا كانت الرواية تصور حدثاً متكاملاً له وحدة, فإن وحدة الحدث لا تتحقق إلا بتصوير الشخصية وهي تعمل؛ لأن الحدث هو الشخصية وهي تعمل, أو هو الفاعل وهو يفعل,

(١) نفسه, ص٦٣. وللمزيد من النماذج ينظر: ص٦٩ وما بعدها, ص٧٢ وما بعدها, ص٧٦ وما بعدها.
(٢) الرواية, ص٧٦.

وإذا كانت الشخصية هي التي تحرك مختلف عناصر العمل السردي، وتدور حولها وتتقاطع عندها كافة العناصر الشكلية الأخرى, بما فيها الإحداثيات الزمنية، والمكانية الضرورية لنمو الخطاب القصصي, فإن بعض النقاد قد عدَّها أهم عنصر من عناصر الرواية, والقصة, وأن خلق الشخصية المقنعة هو أساس بناء الرواية, وسبب نجاحها, ولذا قيل: القصة فن الشخصية(٣), وقد كان حضور الشخصية في روايات القرن التاسع عشر يظهر بكثافة من خلال اختيار أسماء الشخصيات وجعلها عنوانا للرواية, أما في روايات الحداثة فإن الأمر قد تغير, بحيث ألفينا البطل بدون اسم, أو يرمز له بحرف, أو رقم(٤), وهو ما اتبعه الكاتب أحمد خالد توفيق في روايته (يوتوبيا)؛ فلم يذكر اسما صريحًا لبطل الرواية (الشاب اليوتوبي)، وإنما اكتفى بالسؤال الذي طرحه على لسان

(٣) ينظر: فن القصة القصيرة, د/ رشاد رشدي, مكتبة الأنجلو المصرية, ط الثانية, يناير ١٩٦٤م, ص٣٠. وينظر: بنية الشكل الروائي, حسن بحراوي, المركز الثقافي العربي, بيروت, ط الأولى,١٩٩٠م, ص٢٠, ينظر: الفن الروائي, ديفيد لودج, ترجمة/ ماهر البطوطي, المجلس الأعلى للثقافة, القاهرة, ط الأولى,٢٠٠٢م, ص٧٨. ينظر: في نظرية الرواية, بحث في تقنيات السرد، د/ عبد الملك مرتاض، سلسلة عالم المعرفة, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب– الكويت, ١٩٩٨م, العدد ٢٤٠, ص٩٠.
(٤) ينظر: سردية الشعر وشعرية السرد, دراسة في تداخل الأنواع الأدبية, د/ طارق محمد عبد المجيد, دار النابغة للنشر والتوزيع, ط الأولى, ١٤٣٦هـ– ٢٠١٥م, ص١٢٠.

الشخصية في سياق التعريف بنفسه: "من أنا... دعنا من الأسماء... ما قيمة الأسماء عندما لا تختلف عن أي واحد آخر؟"(١) وكأن البطل هنا يمثل طبقة بأكملها, تتماثل في صفاتها الثقافية والفكرية, وهي طبقة سكان يوتوبيا –خاصة الشباب– وعندا سئل بطريقة مباشرة عن اسمه الذي ينادى به, استعار اسمًا يدل على استعلائه, واستكباره (علاء): "ما اسمك ؟"

قلت بلا اكتراث: أنا علاء"

ابتسم في خبث وقال: طبعًا لو حسبت أنني سأصدق لحظة واحدة أنك علاء فأنت ترى في وجهي غباء، لكن لا يهم.. لا قيمة للأسماء إلا في جعلك تعرف أنني أوجه لك الكلام"(٢).

وقد اتبع الكاتب في رسم شخصيات روايته, وتقديمها بأبعادها المختلفة, طريقة التتابع؛ إذ قدمها وهي تتحرك داخل الرواية, وكشف عن صفاتها تبعًا لتسلسل الأحداث, ومن ثم لا يستطيع القارئ تكوين صورة كاملة عن الشخصية إلا بعد الفراغ من قراءة الرواية, والرواية تتمحور حول شخصيتين رئيستين:

الأولى هي: شخصية الشاب اليوتوبي, وهو شاب في السادسة عشرة من عمره: "ستة عشر عامًا من عمرك وأنت لا تنتمي إلا إلى يوتوبيا.. أنت مواطن (يوتوباوي) ذوبتك الحياة المترفة وذوبك الملل، فصرت لا تعرف الأمريكي من المصري من الإسرائيلي.."(٣).

مثقف, قرأ في صغره كل كتاب وقع في يديه، حتى تحولت القراءة بالنسبة له هواية تغيبه عن الوعي كنوع رخيص من المخدرات – كما يدعي–: "قال لي سالم بيه: "أنت تقرأ كثيرًا.. أنت مجنون.."

قلت له إن القراءة بالنسبة لي نوع رخيص من المخدرات. لا أفعل بها شيئًا سوى الغياب عن الوعي.. لقد تجاوزت السادسة عشرة .. قرأت كل كتاب وقع في يدي حتى اكتفيت.."(٤).

كما كشف عن جزء من فكره الثقافي: "أنا أعتبر مثقفًا في يوتوبيا.. أنا من القلائل الذين قرأوا كل شيء وقع تحت أيديهم... ليست الثقافة دينًا يوحد بين القلوب ويؤلفها، بل هي على الأرجح تفرقها لأنها تطلع المظلومين على هول الظلم الذين يعانونه، وتطلع المحظوظين على ما يمكن أن يفقدوه.. إنها تجعلك عصبيًا حذرا.. دعك من تحول قناعاتك الثقافية إلى دين جديد يستحق أن تموت من أجله، وتعتبر الأخرين ممن لا يعتنقونه كفارًا"(٥).

هكذا بدأ الكاتب رسم شخصياته, وبيئتها الاجتماعية, مع إلقاء الضوء على السمات الخاصة لكل شخصية, وطريقة تفكيرها, فيقدم للقارئ صورة فوتوغرافية للشاب اليوتوبي: "أقف أمام المرآة.. أتأكد من أن شعري حليق بطريقة هنود الموهيكان الشهيرة.. أصلع على جانبي الرأس والخصلة البنفسجية العالية في المنتصف

(١) الرواية, ص١٥.
(٢) نفسه, ص١٠٠.
(٣) نفسه, ص١٥.
(٤) نفسه, ص١٥.
(٥) الرواية, ص١٠٩.

مثل ديك بري ثائر.. الصدر عار إلا من عدة قلائد عملاقة.. هناك جماجم و أيقونات من سحر الفودوو.. لست عابد شيطان في الواقع أنا لا أصدق وجود شيء على الإطلاق، لكن هذه الأشياء تبدو مثيرة على صدري الوشم كذلك غريب.. إنه يروق للفتيات هنا.. السروال المصمم بعناية بحيث يظهرك في مظهر أكثر فحولة، وهو قصير يظهر ربلتي الساقين .. أحيانا أمارس الحفاء لكن ليس اليوم .. أعلق القرط الجديد في غضروف أنفي والقرط الآخر في حاجبي.. لن أضع حلية اللسان اليوم.. ثم بصبر أقوم بتلوين أسناني اللون الأحمر للنابين والأصفر للقواطع.. الأزرق للضروس.. أضع العدسات الملتصقة الجديدة التي تجعل لون العينين أبيض.. تأثير مثير للفتيات أن ترمقهن بعيون مبيضة كأنك الموت.. هذا يقهرهن فعلًا... أتأكد من أن الجرح على جبيني مفتوح.. أعالج حافته بعناية ليبدو داميًا.. إن الجروح مثيرة بلا شك.. ظهرت هذه الموضة منذ عامين وصار لها متخصصون.. المهم أن يبدو الجرح بشعًا قدر الإمكان ويبدو صناعيًا كذلك حتى لا يشمئز من يراه.. هذا فن حقيقي.." (١).

ومن خلال حديث الشخصية عن نفسها تبين للقارئ أنها تعاني من اضطرابات نفسية أوصلتها إلى السادية, والتمتع بتعذيب الآخر: "أن تمشي وسط طلقات الرصاص في صحراء تتناثر فيها جثث الموتى!.. كم أن هذا رائع"(٢), واتضحت همجيته, وتجرده من أدنى مشاعر الإنسانية في اعتدائه على (صفية) أخت (جابر), مريضة الدرن:"كممت فمها فخرست وأراحني هذا من فيض بكتريا الدرن المنبعث من أنفاسها على كل حال.. اغتصاب مريضة سل!.. سوف تدخل هذه الواقعة التاريخ. ربما أحكيها مرارًا للأصدقاء في جلسات الفلوجستين لو عدت سالمًا"(٣).

كما اتضحت في قتله جابر بعد أن أنقذه من بطش الأغيار, وآواه في داره, كما ساعده في الوصول إلى مدينته(٤).

أما الشخصية الثانية فهي: جابر، أحد الفقراء في الرواية (الأغيار)، يهوى قراءة الكتب, فهو مثقف في بيئة لا تعرف للكتب قيمة, إلا ما يأتي من بيعها بالوزن: "أنا لا أفهمه.. أعتقد أنه من الطراز المثقف في وسط ليس وسطه.. الخروف الذي يفكر يصير خطرًا على نفسه والآخرين"(٥).

أما عن مصدر ثقافته, فإنه يتكشف على لسان أخته (صفية)؛ إذ إنه من الطبقة التي مُنحت فرصة دخول الجامعة, لكنها لم تستطع الحصول على وظيفة حكومية: "هو من طبقة (التلامذة).. إنهم هؤلاء الذين دخلوا كليات أو

(١) نفسه, ص١٣, ١٤.

(٢) نفسه, ص١٤.

(٣) الرواية, ص١٦٤.

(٤) ينظر: الرواية, ص١٧٧, ١٧٨.

(٥) نفسه, ص١٠٩.

جامعات منذ عشر سنوات ثم لم يجدوا عملًا, ولم يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا بما تعلموه.. لكن علاقتهم بالكتب لا تنتهي"(١), كما أن علاقته بالكتب لم تنته بانتهاء دراسته, وإنما امتدت بعدها حتى صار شغوفًا بكل ورقة تقع تحت يديه, يبحث عن الثقافة في صناديق القمامة, وفي الكتب الملقاة على الأرصفة: "يصمم أن يقرأ.. يبحث في القمامة عن كل كتاب قديم فهي أشياء لم تعد تباع.. هذه مزية أن تهتم بأمور لم تعد تهم أحدًا.. على الأقل لن يسرقك الآخرون.. هذه الكتب ملقاة هنا منذ سنين بينما لا يمكن أن تترك عود ثقاب من دون أن يأخذه أحد.."(٢).

وقد أفصح (جابر) عن سمات شخصيته, وشعوره بالاغتراب بقوله: "قرأت كثيرًا جدًا.. قرأت كل شيء.. حتى أذابت الحروف بعضها.. وحتى صرت لا أنتمي للأغيار ولا ليوتوبيا.. في كل موضع أنا غريب مختلف شاذ أحمق غير متكيف غير مندمج.. هل كان في وسع أحدهم منع هذا؟ لا أعرف.. أنا لست اقتصاديًا ولا سياسيًا.. دعك من أنني لم أتلق تعليمًا منتظمًا منذ دخلت الجامعة المجانية.."(٣), كما ظهرت ثقافة (جابر) من خلال تحذيراته لمجتمعه, وتخوفه من انحدار حالهم: "ها أنتم أولاء يا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلون الكلاب! لقد أنذرتكم ألف مرة.. حكيت لكم نظريات (مالتوس) و(جمال حمدان) ونبوءات (أورويل) و(هـ. ج. ويلز).. لكنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة وتنامون... الآن أنا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالي, وبين الشماتة فيكم لأنكم الآن فقط تعرفون"(٤).

كما قدم لنا الكاتب شخصية (جابر) من خلال وجهة نظر الشخصية المحورية الأولى, بصورة فوتوغرافية فاحصة: "أذناه مليئتان بالصماخ.. أصابع قدمه متقرحة تطل من صندل حقير.. نظارته ملحومة بالنار.. عينه تالفة.. غده أسود .. أخته حيوان مصدور.. طعامه فاسد.. كتبه بالية.. أحلامه موءودة.. أفكاره عتيقة.. أظفاره مسودة.. شعره مجعد معجون بالتراب.. اسمه (جابر)... قومه رعاع.. أصدقاؤه حثالة.. برغم هذا كله يمشي كالبشر ويتكلم كالبشر.. برغم هذا كله لم يرتم عند قدمي متوسلًا لي كي أقطع ذراعه"(٥).

أما (صفية), فقد قدمها الكاتب بلسان الشاب اليوتوبي من خلال الوصف المجمل الذي كشف عن عمرها, وبعض ملامحها المادية, التي كشفت بدورها عن مستواها الاجتماعي: "سمعنا حركة ودخلت الكوخ فتاة في العقد الثاني من العمر يبدو أنها مليحة وإن كانت قذارة أسمالها تخفي أي حسن.. القذارة جعلت ثوبها

(١) نفسه, ص١١١.
(٢) نفسه, ص١١١.
(٣) نفسه, ص١٣٨.
(٤) الرواية, ص٨٤.
(٥) نفسه, ص١٢٤.

صلبًا لا يرف ولا يهتز كأنه من جلد مدبوغ.."[١], كما سمح الكاتب للشخصية أن تقدم نفسها, وأن تضيئ أحد جوانبها؛ فـ(صفية) مريضة درن, لا تستطيع أن تجد له علاجًا: "هذا درن.. إنه يعود منذ تسعينات القرن الماضي.. ليس لدينا علاج.. وهو لا يجدي على كل حال"[٢].

لقد اهتم الكاتب برسم شخصياته, وتعامل معها على أنها دليل له وجهان: دال, ومدلول, فهي (دال) عندما تتخذ أسماء, وصفات تلخص هويتها, وهي (مدلول) عندما تتكشف من خلال مجموع ما يقال عنها بواسطة جمل متفرقة في النص, أو بواسطة تصريحاتها, أو سلوكها[٣], مما يدل على اهتمام الكاتب بتقديم شخصياته تقديمًا كاملًا يكشف عن أبعادها المختلفة, وفقًا لتطور الأحداث.

****

ثالثًا: البيئة الزمانية والمكانية

على الرغم من تلازم هذين العنصرين داخل العمل الأدبي, فإن لكل عنصر منهما وظيفته الخاصة, فإذا "كان المكان من خصائص الأبعاد المادية للحياة الإنسانية في العمل الأدبي، فإن الزمان هو الحياة نفسها، أو هو الوعي بالحياة, كما تختلف طريقة توظيف كل منهما في الخطاب الأدبي؛ فالمكان يمثل الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية، أما الزمان فيتمثل في الأحداث نفسها وتطورها"[٤], بالإضافة إلى اختلاف طريقة إدراكهما؛ إذ إنَّ الزمان يرتبط بالإدراك النفسي، أما المكان فيرتبط بالإدراك الحسي, وقد عرض الكاتب أحداث روايته في زمن المستقبل, وتحديدًا في سنة (٢٠٢٣م), أي بعد سبعة عشر عامًا من نشره لروايته للمرة الأولى سنة (٢٠٠٦م), ولم تستغرق تلك الأحداث سوى يومين أو ثلاثة فقط, تحركت فيها الأحداث في زمن متسلسل تصاعديًا, أما الزمن النفسي المتقطع, فقد ظهر من خلال نسقين هما:

١- الاسترجاع.

٢- الاستشراف.

أما الاسترجاع فمعناه العودة إلى الوراء, وهو خاصية حكائية نشأت مع الحكي الكلاسيكي، وتطورت بتطوره، ثم انتقلت إلى الأعمال الروائية الحديثة, "فالقصة لكي تروى, لا بد وأن تكون قد تمت في زمن ما، غير الزمن الحاضر بكل تأكيد؛ لأنه من المتعذر حكي قصة أحداثها لم تكتمل بعد, وهذا ما يفسر ضرورة قيام تباعد معقول بين زمن حدوث القصة وزمن سردها"[٥], سردها"[٥], وهو تقنية سردية توظف في الخطاب الخطاب لضرورة فنية وجمالية تتكئ في

(١) نفسه, ص١٠٠.

(٢) نفسه, ص١١١.

(٣) ينظر: سردية الشعر, وشعرية السرد, ص١٣٠.

(٤) الشخصيات القصصية في الشعر العربي القديم, د/ جمانة الدليمي, دار النابغة للنشر والتوزيع, ط الأولى, ١٤٣٥هـ -٢٠١٤م, ص١٢٠.

(٥) بنية الشكل الروائي, ص١٢١.

توظيفها على فكرة مخالفة مسار السرد, والعودة إلى حدث سابق للنقطة الزمنية التي بلغها السرد بغية إلقاء الضوء على الماضي, ووظيفته غالباً تفسيرية, وهي تسليط الضوء على ما فات أو غمض من حياة الشخصية في الماضي, أو ما وقع لها خلال غيابها عن السرد, وتقديم معلومات محددة ضرورية لفهم الأحداث(١).

وقد برزت تلك التقنية الزمنية في مواضع مختلفة من الرواية, ومن نماذجها حديث رجل المارينز الذي وضح فيه بعض الأخطاء التي وقعوا فيها عند غزوهم للعراق: "كانت غلطتنا في العراق أننا تواجدنا وسط الناس أكثر من اللازم.. سرعان ما صححنا هذا الخطأ وانسحبنا من المدن لنكثف وجودنا في قواعد مغلقة محصنة حول منابع النفط..".

-"معلوماتي أنكم هزمتم في العراق..".

-"أنت تتكلم مثل الأوروبيين.. بدأنا الحرب للإطاحة بالطاغية والسيطرة على النفط وتحويل ذلك البلد الغني إلى أشلاء.. حسن.. فعلنا هذا كله حرفيًا فهل يوجد اسم آخر للنصر؟"(٢), وفي حديثه عن مصدر الأموال التي يتمتع بها سكان يوتوبيا, اعتمد على تقنية الاسترجاع؛ ليقص على الشاب كيف تمكن رجال يوتوبيا من تأمين مستعمرتهم بالطاقة اللازمة: "كان هذا عندما ابتعتم كل الآثار المصرية!".. "نعم.. لم يكن لدى المصريين ما يباع سوى الماضي وقد اشتريناه, ودفعنا ثمنه بالبايرول الذي احتكرته يوتوبيا والمجتمعات المماثلة.. عقد لمدة خمسين سنة يكفل لكم البايرول اللازم للحياة.. كيف تحسب سياراتكم وطائراتكم هذه تتحرك؟.. كل السيارات والطائرات تتحرك بالبايرول منذ عشرة أعوام.. السيارات والمحركات التي تتحرك بالبترول قد انتهى عهدها أو كاد.. لقد صار البترول رخيصًا كالماء, لكن المشكلة هي ندرة الآلات التي تعمل به!"(٣).

أما الاستشراف فهو نوع من القفز إلى المستقبل و"التطلع إلى ما هو متوقع, أو محتمل الحدوث في العالم المحكي, أو ذكر حدث لم يحن وقته بعد(٤).

ولهذه التقنية الزمنية وظيفة مهمة في سياق السرد؛ إذ يلجأ إليها الكاتب "كتمهيد أو توطئة لأحداث لاحقة يجري الإعداد لسردها من طرف الراوي, فتكون غايتها في هذه الحالة هي حمل القارئ على توقع حادث ما, أو التكهن بمستقبل إحدى الشخصيات, كما يأتي على شكل إعلان عما ستؤول إليه مصائر الشخصيات, مثل الإشارة إلى احتمال موت أو

(١) ينظر: معجم مصطلحات نقد الرواية, ص١٨, ١٩, الشخصيات القصصية في الشعر العربي القديم, ص١٢٦.

(٢) الرواية, ص٣٢.

(٣) نفسه, ص٣٣. وللمزيد من نماذج الاسترجاع ينظر: الرواية, ص٧٣, ٧٦, ١١٩.

(٤) ينظر: بنية الشكل الروائي، ص١٣٢, معجم مصطلحات نقد الرواية، ص١٥.

مرض أو زواج"[١], ولم يأت الاستشراف في هذه الرواية إلا في مواضع قليلة, ففي إطار محاولة الشاب اليوتوبي إقناع صديقته لخوض تجربة الصيد, وتهدئة روعها, اعتماد على الاستشراف؛ من خلال رسم الخطة لمغادرتهما المدينة, وطريقة دخولهما منطقة الأغيار, وسبيلهما للخروج منها والعودة إلى يوتوبيا مرة أخرى: "لا أحد يعرفنا في الحافلة لأن هؤلاء القوم لم يعودوا يعرفون من يأتون ومن يرحلون.. عندما نرغب في العودة سيكون هذا أسهل لأنني سأتصل بأبي طالبًا أن يرسل لنا من يعيدنا إلى (يوتوبيا)"[٢].

وقد تجلت مظاهر الاستشراف في الألفاظ التي وردت في ثنايا النص على لسان (جابر)؛ والتي تدل على الاستقبال: كـ(السين, سوف): "يومًا ما سأموت ولسوف أعود لهم في صورة عفريت أو شبح ولسوف أجعل حياتهم جحيمًا.. لن يكون أحدهم في مأمن مهما توارى بعيدًا عني"[٣], كما استعرضت (صفية) أحداثًا ستحصل لها مستقبلًا, وكأنها –على مستوى الشعور النفسي– تدخل في نطاق الحقائق المؤكدة بالنسبة لها: "قلت لها وهي تمسح وجهي: "ماذا ستفعلين بصدد هذا الدرن؟".. قالت كأن الأمر لا يعنيها: "سوف أتعاطى منقوع الأعشاب الذي تعده أم (عبير), وأدفئ صدري, وفي النهاية سأموت وسط بركة دم.. هذا هو كل شيء.. لكن (جابر) لا يصدق هذا .. يعتقد أنني سأشفى"[٤].

وهكذا تنوع أسلوب الكاتب في استعمال المفارقات الزمنية عن طريق تقنيتي الاسترجاع، والاستشراف، مع ملاحظة إكثار الكاتب من توظيفه لتقنية الاسترجاع, التي جاءت تفسيرية؛ لتسليط الضوء على بعض جوانب الشخصية في الماضي, وبيان ما وقع لها خلال غيابها عن السرد, وتقديم معلومات محددة ضرورية لفهم الأحداث, أما الاستشراف فقد جاء تمهيدًا لأحداث لاحقة, غايتها حمل القارئ على توقع الحدث, أو التكهن بمستقبل إحدى الشخصيات.

المكان:

المكان في الرواية هو الموضع الذي تقع فيه الأحداث, وتتحرك فيه الشخصيات, وهو مكان لفظي متخيل, يتولد عن طريق الحكي ذاته, وتصنعه اللغة؛ لتوازي به مكانا موجودًا في الواقع أو في خيال الكاتب[٥], وقد جاء وصف المكان وتحديده في رواية (يوتوبيا) متقطعًا؛ تتناوب لحظات ظهوره مع السرد أو مقاطع الحوار, وقد حرص الكاتب على إبراز أثر البيئة المكانية في نفسية الشخصية بما تحمله من

---

(١) نفسه, ص١٣٢.

(٢) الرواية, ص٤٢.

(٣) الرواية, ص١٣٩.

(٤) نفسه, ص١٦٢. وللمزيد من نماذج الاستشراف في الرواية ينظر: ص٢٦, ٧٩, ١٦٦.

(٥) ينظر: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي, د/ حميد لحمداني, المركز الثقافي العربي, بيروت, ط الأولى, ١٩٩١م, ص٦٢. وينظر: البناء الفني في الرواية السعودية, ص٢٩٤.

معان ودلالات؛ ففي الرواية حضور بارز لمدينة (يوتوبيا), ومن خلال رسم جغرافية المكان تكشفت أبعاد سكانه, وتحدد السبب في انعزالهم: "يوتوبيا المستعمرة المنعزلة التي كونها الأثرياء على الساحل الشمالي ليحموا أنفسهم من بحر الفقر الغاضب بالخارج وهي صارت تحوي كل شيء يريدونه"(١).

وقد أتى وصف معالم المدينة على لسان الشخصية الرئيسة (الشاب اليوتوبي), فأظهر ما تتمتع به من بوابات مرتفعة عملاقة, وسلك مكهرب على أسوارها التي تحيط بها, ودوريات للحراسة لا تسمح لأحد من خارج أسوارها بالدخول إليها: "يمكنك أن ترى معي معالمها.. البوابات العملاقة.. السلك المكهرب .. دوريات الحراسة التي تقوم بها شركة (سيفكو) التي يتكون أكثر العاملين فيها من (مارينز) متقاعدين"(٢), ثم تجول الكاتب بالقارئ -على لسان البطل اليوتوبي- داخل المدينة: فأراه شوارعها وميادينها, وحدائقها, في استعراض شامل لمظاهر الترف والبذخ: "بعد هذا منطقة الحدائق .. منطقة المدارس المخصصة لإقناع الآباء أنهم ما زالوا كذلك.. منطقة دور العبادة التي بها أكثر من مسجد وكنيسة ومعبد يهودي.."(٣).

ثم انتقل بالقارئ مستعرضًا معالم الفخامة والثراء, حيث منطقة المولات, والقصور:

"منطقة المولات .. هنا يمكنك أن تبتاع الفلوجستين بشكل غير رسمي من بعض رجال الأمن .. ثم ترى القصور.. قصر (علوي) بك ملك الحديد.. قصر (عدنان) بك ملك اللحوم.. قصر أبي ملك الدواء.. ثم المطار الداخلي .. هناك مطار طبعًا حتى لا تضطر للخروج.."(٤).

ومن خلال هذا الوصف استطاع الكاتب أن يكشف عن تأثير المكان على نفسية قاطنيه، وإبراز خصائص الشخصيات الملائمة له؛ إذ تخطى الأمر حدوده الطبيعية حتى صارت مدينة (يوتوبيا) -بالنسبة إلى سكانها- أشبه ما تكون بالسجن, على الرغم من توافر كل ألوان الترف فيها, بل إن مظاهر هذا النعيم كانت سببًا رئيسًا من أسباب الملل الذي يسري في نفوس هؤلاء الشباب: "ليس هناك من جديد يثير فضولك أو حماسك في (يوتوبيا)... لا شيء يتغير.. أحيانًا يخيل لي أننا معتقلون وأن الذين بالخارج هم الأحرار.. يذكرك الأمر بمعسكرات الاعتقال النازية التي تراها في أفلام الحرب"(٥), وحين طلب الشاب من جندي المارينز أن يسمح له بالخروج من يوتوبيا لتجربة الصيد كانت أسبابه تتلخص في: الملل الذي يشعر به(٦).

كذلك كان عنصر المكان حاضرًا بشكل مكثف بعد الخروج من مدينة يوتوبيا, ودخول

---

(١) الرواية, ص٢٠.
(٢) الرواية, ص٢٠.
(٣) نفسه, ص٢١.
(٤) نفسه, ص٢٢.
(٥) نفسه, ص٢٠.
(٦) نفسه, ص٣٣.

منطقة الأغيار؛ حيث البداية الفعلية للأحداث, فوجدنا وصفًا دقيقًا لبيت (جابر)[١], يعكس البيئة التي يعيش فيها, وقد نجح الكاتب في تجسيد ملامح الديستوبيا بأنواعها المختلفة, في صورة سينمائية كأنك تشاهدها على شاشة تلفاز؛ حيث أطنان المخلفات, وبقايا المجاري: "وغادرت الكوخ مع الفتى ماشين وسط أطنان المخلفات وبقايا المجاري, وسط الصبية الذين يتشاجرون ويقذفون بعضهم بالمخلفات.."[٢].

كما أظهرت الحارات والأزقة قذارة المدينة: "وسط الظلام مشينا في الحارات والأزقة المتسخة التي لا ينيرها إلا مشعل هنا أو هناك.. وسط باعة السمك الفاسد.. وسط باعة المخدرات الرخيصة.. وسط باعة الأجساد.. وسط الشباب الذين يمزقون بعضهم في مشاجرات لا تنتهي. وسط الأفاقين والنصابين وباعة الأعشاب.. وسط برك الماء الآسن وبقع الكيروسين.. وسط الترنشات التي لم تكسح منذ شهرين.. وسط جثث الكلاب التي تم تجريدها من اللحم.. وسط باعة الأجهزة المسروقة.. وسط الصبية الجالسين يلعبون القمار على قفص دجاج مقلوب.. وسط كل هذا نبتعد.. ثلاثة أشباح لكنها لا تجلب الرعب بل تشعر به.."[٣], وهكذا كان وصف المكان في الرواية جزءًا لا يتجزأ من بنائها الفني؛ فالشوارع, والأزقة, والبيوت قُدِّمت من خلال حركة الشخصيات, كما كان للمكان دور تفسيري أعان على فهم الشخصية, ومعرفة مستواها الاجتماعي, بالإضافة إلى تأثيره على الشخصيات على المستوى النفسي.

رابعًا: سمات الأسلوب السردي

تعتمد الرواية على السرد[٤] في تقديم الشخصيات, ونقل الأحداث, وتصوير الأماكن, وتجسيد الزمن, كما يقدم السرد للحوار, ويختمه, وربما تغلغل داخله توجيهًا, ووصفًا, وتعليقًا, وهذا ما يجعل لغة السرد تمثل الشكل المركزي في الرواية[٥].

وقد اعتمد الكاتب في تقديم أحداث روايته على ضمير المتكلم, لرصد الواقع, وانتقاد الوضع المأزوم, والتحذير من مستقبل مظلم, وقد استطاع الكاتب بتوظيفه لضمير المتكلم أن يُكسب نصه ذاتية, ومصداقية تجعل القارئ يرى ما يحصل بعينيه, ويعيش التجربة كفرد من أفرادها, كما يتميز هذا الأسلوب بالكشف عن خبايا الشخصية, من خلال تصوير داخلها.

وقد اتسم الأسلوب السردي في رواية يوتوبيا بالتزامه باللغة الفصحى مع تداخل بينها وبين العامية في مواضع قليلة جدًا, جاءت متلائمة

---

(١) نفسه, ص٩٩.

(٢) الرواية, ص١٤٠.

(٣) نفسه, ص١٦٨. وينظر: ص١٦٩.

(٤) السَّرْدُ في اللغة تَقْدِمَةُ شيء إلى شيء تأْتي به متَّسقًا بعضُه في إثر بعض متتابعاً, سَرَد الحديث ونحوه يَسْرُدُه سَرْداً إذا تابعه" لسان العرب, مادة (سرد), ٣/ ١٩٨٧.

وفي الاصطلاح: هو الخيارات التقنية والإبداعية التي تتم من خلالها تحويل الحكاية إلى قصة فنية. معجم مصطلحات نقد الرواية, ص١٠٥.

(٥) ينظر: البناء الفني في الرواية, ص٤٩٥.

مع الشخصية والموقف: "حكيت لها عن كثير عزة فقالت لي: "اتنيل"[١].

كما جاءت اللغة متباينة بتباين الشخصيات, واختلاف مستواها الاجتماعي, والثقافي, وقد نجح الكاتب في إدارة هذا التنوع, إلا أنه قد أخفق في بعض المواقف التي شعر القارئ فيها بوجود الكاتب, وعلو نبرته, ومن ذلك إقحامه للمصطلحات الطبية التي تعكس ثقافته هو؛ مثل الحوار الذي جاء على لسان جابر:

"ماذا دهاك؟.. هل سلطة يوتوبيا عليك مطلقة إلى هذا الحد؟.. هل صارت يوتوبيا تسيطر على هرموناتك وغدتك النخامية وغدتك الكظرية ونسيجك الكهفي وجهازك السمبثاوي؟.. هل إلى هذا الحد تغلغلت فيك؟"[٢].

ومن الخصائص البارزة في أسلوب السرد في الرواية انفتاح الرواية على أكثر من خطاب؛ فقد استدعت نصوصًا ساعدت على تعضيد النص وإكسابه قيمة فنية, كما وسمته بالواقعية, ومن هذه النصوص: الأسلوب الشعري المتمثل في ظهور بعض أشعار الشاعر عبد الرحمن الأبنودي على صفحات فصول الرواية, وتكرارها في بعض المواضع[٣].

كما ضمَّن الكاتب روايته بعض الأحداث الواقعية, والحقائق الإحصائية التي أكسبت الرواية كثيرًا من المصداقية, ومنحت العمل قبولًا لدى المتلقين[٤].

*****

الخاتمة

لقد حاولت الدراسة أن تستعرض ملامح الأدب الديستوبي في رواية يوتوبيا, وقد انتهت إلى نتائج, من أبرزها ما يلي:

- بنى الكاتب روايته على الطبقية, واستشرف من خلالها انقسام مصر إلى طبقتين خلال سنوات قليلة.
- جاء عنوان الرواية خادعًا للقارئ, فلم يدل على المعنى المراد, وإنما دلَّ على النقيض تمامًا.
- نجح الكاتب في استعراض الملامح الديستوبية, وقدم لقضايا يعيشها الشعب المصري, لكنه بالغ في عرضها, بصورة خيالية.
- لم يقدم الكاتب حلولًا جوهرية لعلاج تلك المشكلة المستقبلية, وإنما اكتفى بالتحدث عن عواقبها وآثارها.
- اعتمد الكاتب في تقديم أحداث روايته على ضمير المتكلم؛ لرصد الواقع, وانتقاد الوضع المأزوم, والتحذير من المستقبل المظلم.
- بُنيت الرواية على أربعة أحداث رئيسة: (فكرة الصيد- دخول منطقة الأغيار- لقاء فتاة الليل وظهور جابر- قتل جابر), شكلت الرواية, وكانت الدافع والمحرك لباقي الأحداث.
- اتبع الكاتب في رسم شخصيات روايته, وتقديمها بأبعادها المختلفة, طريقة التتابع؛ إذ قدمها وهي تتحرك داخل الرواية, وكشف عن صفاتها تبعًا لتسلسل الأحداث, كما اهتم بتقديم شخصياته تقديمًا كاملًا يكشف عن أبعادها المختلفة, وفقًا لتطور الأحداث.

---

(١) الرواية, ص٧٣.

(٢) نفسه, ص١٤٧.

(٣) ينظر الرواية: ص١٥٠, ١٧٦, ١٧٩, ١٨٨.

(٤) ينظر: ص٥٢, ص١٣٧, ص١٨١, وما بعدها.

– أكثر الكاتب من توظيفه لتقنية الاسترجاع, التي جاءت تفسيرية؛ لتسليط الضوء على بعض جوانب الشخصية في الماضي, وبيان ما وقع لها خلال غيابها عن السرد, وتقديم معلومات محددة ضرورية لفهم الأحداث.

– جاء الاستشراف تمهيدًا لأحداث لاحقة, حملت القارئ على توقع الحدث, والتكهن بمستقبل الشخصيات, ولم يلجأ إليه الكاتب إلا في مواضع قليلة.

– كان عنصر المكان حاضرًا في الرواية بشكل مكثف خاصة بعد الخروج من مدينة يوتوبيا, ودخول منطقة الأغيار التي تمثل البداية الفعلية للأحداث, فوجدنا وصفًا دقيقًا يعكس البيئة التي تعيش فيها الشخصيات.

– نجح الكاتب في تجسيد ملامح الديستوبيا بأنواعها المختلفة, في صورة سينمائية كأنك تشاهدها على شاشة تلفاز.

– استطاع الكاتب من خلال وصف المكان أن يكشف عن تأثيره على نفسية قاطنيه، وإبراز خصائص الشخصيات الملائمة له.

– استطاع الكاتب بتوظيفه لضمير المتكلم أن يُكسب نصه ذاتية, ومصداقية تجعل القارئ يرى ما يحصل بعينيه, ويعيش التجربة كفرد من أفرادها.

–اتسم الأسلوب السردي في رواية يوتوبيا بالتزامه باللغة الفصحى مع تداخل بينها وبين العامية في مواضع قليلة جدًا, جاءت متلائمة مع الشخصية والموقف.

– جاءت اللغة متباينة بتباين الشخصيات, واختلاف مستواها الاجتماعي, والثقافي, وقد نجح الكاتب في إدارة هذا التنوع, إلا أنه قد أخفق في بعض المواقف التي شعر القارئ فيها بوجود الكاتب, وعلو نبرته.

– من الخصائص البارزة في أسلوب السرد في الرواية انفتاح الرواية على أكثر من خطاب؛ حيث استدعت نصوصًا ساعدت على تعضيد النص, وإكسابه قيمة فنية, كما وسمته بالواقعية, ومن ذلك: تضمين الكاتب روايته بعض الأشعار, والأحداث الواقعية, والحقائق الإحصائية.

****

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

- رواية يوتوبيا، أحمد خالد توفيق, دار ميريت، القاهرة، ط الأولى, ٢٠٠٨م.

ثانيًا: المراجع:

- الأدب وفنونه، د/عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي, ط التاسعة, ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- البناء الفني في الرواية السعودية, د/ حسن الحازمي, دار النابغة للنشر والتوزيع, ط الثانية, ١٤٣٧هـ- ٢٠١٦م.
- بنية الشكل الروائي, حسن بحراوي, المركز الثقافي العربي, بيروت, ط الأولى,١٩٩٠م.
- بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي, د/ حميد لحمداني, المركز الثقافي العربي, بيروت, ط الأولى, ١٩٩١م.
- الخيال العلمي مقدمة قصيرة جدًّا, ديفيد سِيد, ترجمة/ نيڤين عبد الرؤوف, مراجعة/ هبة عبد المولى أحمد, مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, ط/ الأولى, ٢٠١٦م.
- دراسات في نقد الرواية, د/ طه وادي, دار المعارف, ط الثالثة, ١٩٩٤م.
- سردية الشعر وشعرية السرد, دراسة في تداخل الأنواع الأدبية, د/ طارق محمد عبد المجيد, دار النابغة للنشر والتوزيع, ط الأولى, ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م.
- الشخصيات القصصية في الشعر العربي القديم, د/ جمانة الدليمي, دار النابغة للنشر والتوزيع, ط الأولى, ١٤٣٥هـ -٢٠١٤م.
- الفن الروائي, ديفيد لودج, ترجمة/ ماهر البطوطي, المجلس الأعلى للثقافة, القاهرة, ط الأولى,٢٠٠٢م.
- فن القصة القصيرة, د/ رشاد رشدي, مكتبة الأنجلو المصرية, ط الثانية, يناير ١٩٦٤م, ص٣٠.
- الفن القصصي في ضوء النقد الأدبي: النظرية والتطبيق، د/ عبد اللطيف محمد السيد الحديدي، دار المعرفة- المنصورة, ط الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.
- في نظرية الرواية, بحث في تقنيات السرد، د/ عبد الملك مرتاض، سلسلة عالم المعرفة, المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت, ١٩٩٨م, العدد ٢٤٠.
- لسان العرب، ابن منظور، دار المعارف، ج/٢ , ٣, (د. ت).
- المدينة الفاضلة عبر التاريخ, ماريا لويزا برنيري, ترجمة: د/عطيات أبو السعود, مراجعة: د/عبد الغفار مكاوي, عالم المعرفة, ع/ ٢٢٥, سبتمبر ١٩٩٧م.
- معجم السرديات, إشراف: محمد القاضي, الرابطة الدولية للناشرين المستقلين, ط الأولى, ٢٠١٠م.

- معجم المصطلحات الأدبية والنقدية, د/ أسامة محمد البحيري, دار النابغة للنشر, ط الأولى, ١٤٤٢هـ- ٢٠٢١م.
- معجم المصطلحات الأدبية, إبراهيم فتحي, المؤسسة العربية للناشرين المتحدين, تونس, ١٩٨٦م.
- معجم مصطلحات الأدب, مجمع اللغة العربية, القاهرة, ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م, ج١.
- معجم مصطلحات نقد الرواية, د/ لطيف زيتوني, دار النهار للنشر، لبنان, ط الأولى, ٢٠٠٢م.
- نهاية اليوتوبيا, السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة, راسل جاكوبي، ترجمة/ فاروق عبد القادر, عالم المعرفة, ع/ ٢٩٦, ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
- اليوتوبية, لايمان تاور سارجنت, ترجمة/ ضياء وزَّاد, مراجعة/ مصطفى محمد فؤاد, مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة, ط الأولى, ٢٠١٦ م.

ثالثًا: الرسائل الجامعية.

- الصراع الحضاري في الإبداع القصصي السعودي, للباحثة أمل عبد الله زين العابدين أحمد برزنجي, مخطوطة دكتوراه, كلية الآداب, جامعة أم القرى, المملكة العربية السعودية, ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

رابعًا: الدوريات والمجلات.

- أدب المدن الفاسدة يجتاح الرواية العربية، حنان عقيل ونجاح غربي, صحيفة العرب، ركن الثقافة، العدد/١٠٥٣١, ٢/٢/ ٢٠١٧م، السنة/ ٣٩.
- أدب المدينة الفاسدة انتقال من الأدب الخيالي إلى الواقع الحقيقي, نرمين صلاح القماح, صحيفة العرب, ركن الثقافة , العدد/ ١٠٩١١, السنة/ ٤٠, ٢٥/ ٢/ ٢٠١٨م.
- الحدث في قصص فارس سعد الدين السردار, د/ نبهان حسان السعدون, مجلة دراسات موصلية, ع/ ٤١, رمضان ١٤٣٤ هـ- ٢٠١٣م.
- الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية العربية المعاصرة؛ قراءة في رواية (أورويل في الضاحية الجنوبية) لفوزي ذبيان, فاطمة پرچگانى, إضاءات نقدية، السنة ٨، العدد ٢٩، ربيع ١٣٩٧هـ- ٢٠١٨م.
- موقع مصراوي, الاثنين ٢ أبريل ٢٠١٨م, أحمد خالد توفيق في سطور.
- موقع اليوم السابع, الثلاثاء ٣ أبريل ٢٠١٨م.

خامسًا: شبكة المعلومات الدولية (الانترنت):

- ليبيا وأدب الديستوبيا, سالم العوكلي, جريدة الوسط, ليبيا, الثلاثاء ١٢ مارس ٢٠١٩, على الموقع: http://alwasat.ly/news/opinions
- الموسوعة العربية, هيئة الموسوعة العربية سورية- دمشق, ١٦/ ٦٢١, على الموقع: http://arab-ency.com.sy/overview.

- موقع: https://www.arageek.com/bio/ahmed-khaled-tawfik .
- نبذة عن أحمد خالد توفيق, موقع سطور: محمد الحصان, ١٨فبراير ٢٠٢٠م.
- ويكيبيديا، الموسوعة الحرة, توماس مور, وشعب بوشمن.
https://ar.wikipedia.org

******

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة.	١٠٠٨
التمهيد: يوتوبيا بين المصطلح والرواية	١٠١٠
أولًا: مفهوم يوتوبيا.	١٠١٠
ثانيًا: مفهوم ديستوبيا.	١٠١٢
ثالثًا: ملخص الرواية.	١٠١٤
المبحث الأول : مستويات الديستوبيا في الرواية	١٠١٦
أولًا: الخراب النفسي:	١٠١٨
١- تحول العلاقة بين أفراد الأسرة.	١٠١٨
٢- الملل= الانتحار.	١٠١٩
٣- ازدواجية الشخصية = التدين الكاذب, وانتهاك القانون.	١٠٢٠
٤- احتقار الآخر.	١٠٢٢
ثانيًا: الخراب المادي:	١٠٢٣
١- الفقر ومظاهره:	١٠٢٣
أ- ديستوبيا الشم والرائحة.	١٠٢٤
ب- ديستوبيا البصر.	١٠٢٥
ج- ديستوبيا الأكل.	١٠٢٥
٢- فوضى الجنس.	١٠٢٦
٣- انتشار المخدرات.	١٠٢٧
٤- القتل.	١٠٢٨
المبحث الثاني البناء الفني	١٠٣٠
أولًا: الحدث.	١٠٣٠
١- أنواع الأحداث.	١٠٣١
٢- أسلوب قص الأحداث.	١٠٣٤
ثانيًا: رسم الشخصيات	١٠٣٥

ثالثًا: البيئة الزمانية والمكانية	١٠٣٩
١- تقنية الاسترجاع.	١٠٣٩
٢- تقنية الاستشراف.	١٠٤٠
٣- المكان.	١٠٤١
رابعًا: رابعًا: سمات الأسلوب السردي.	١٠٤٣
الخاتمة.	١٠٤٤
فهرس المصادر, والمراجع.	١٠٤٦
فهرس الموضوعات.	١٠٤٨